المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

چوليان باجينى

هل تحكم على الكتاب من عنوانه؟

نظرة نقدية جديدة على مائة من الأقوال والأمثال المعروفة

ترجمة: هبة الشايب

2022


mohamed khatab

هل تحكم على الكتاب من عنوانه؟

نظرة نقدية جديدة على مائة من الأقوال والأمثال المعروفة



المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2022
- هل تحكم على الكتاب من عنوانه؟: نظرة نقدية جديدة على مائة من الأقوال والأمثال المعروفة
- جوليان باجينى
- هبة الشايب
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:
SHOULD YOU JUDGE THIS BOOK BY ITS COVER?
By: Julian Baggini

Originally published by Granta Publications

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554



هل تحكم على الكتاب من عنوانه ؟

نظرة نقدية جديدة على مائة من الأقوال والأمثال المعروفة

تأليف : چوليان باجينى

ترجمة : هبة الشايب



2013



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

باجينى؛ چوليان

هـل تحكم على الكتـاب من عنـوانه؟؛ تأليف: چوليـان باجـينى؛

ترجمة: هبة الشايب

ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣

٢٢٠ ص؛ ٢٤ سم

١- المقالات الأدبية

(أ) الشايب، هبة (مترجم)

(ب) العنـوان ٨٠٨,٨٤

رقم الإيداع ٢٠١٢/٢٨١٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 941 - 2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعـريفه بها، والأفكـار التى تتضمنهـا هى اجتهـادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.



المحتـــويات

شكـر 11
تمهيد 13
١- عصفور فى اليد خير من اثنين على الشجرة 15
٢- السلوكيات الحميدة تصنع الرجال 17
٣- أن تحب وتفشل أفضل من ألا تحب على الإطلاق 19
٤- لا دخان بغير نار 21
٥- لا فـائض 23
٦- صاحب سبع صنائع ولا يجيد أيًا منها 25
٧- الإنسان ليس جزيرة منعزلة 27
٨- انسَ وصـافح 29
٩- الممارسة تؤدى إلى الإتقان 31
١٠- الحب لا يفشل أبدًا 33
١١- صوت الأفعال أعلى من الأقوال 35
١٢- ما لا يقتلنى يجعلنى أكثر قوة 37
١٣- الاستثناء يثبت القاعدة 39
١٤- كل العائلات السعيدة تشبه بعضها بعضًا 41
١٥- لا كسب دون عناء 43



١٦- إن لم يكن فى استطاعتك تحمل الحرارة، اخرج من المطبخ 45

١٧- يأتى المساء بالحل 47

١٨- قد أختلف معك فى الرأى، ولكننى أدافع باستماتة عن حقك فى التعبير عنه 49

١٩- حكيم مع القرش وأحمق مع الجنيه 51

٢٠- رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة 53

٢١- اصنع القش والشمس مشرقة 55

٢٢- أولا... لا تتسبب فى ضرر 57

٢٣- إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب 59

٢٤- القراءة للعقل مثل الرياضة للجسم 61

٢٥- افعل ما تعظ به غيرك 63

٢٦- أعظم حب هو حب الإنسان لأصدقائه عندما يقدم حياته لهم 65

٢٧- ما سيحدث سيحدث 67

٢٨- كلما تغيرت الأشياء بقيت كما هى 69

٢٩- ثلاثة أنواع من الكذب: الكذب، والكذب الملعون، والإحصائيات 71

٣٠- سيتضح كل شىء مع الوقت 73

٣١- ما الدنيا إلا مسرح كبير 75

٣٢- تنبُت أشجار البلوط الضخمة من بذور صغيرة 77

٣٣- الشىء الوحيد المؤكد هو أنه لا يوجد شىء مؤكد 79

٣٤- الألفة الزائدة تولد الازدراء 81



٣٥- الثبات الأحمق على الرأى بعبع العقول الصغيرة 83

٣٦- الحياة ليست بروقة نهائية 85

٣٧- الغرور قبل الوقوع 87

٣٨- من يعط القليل وهو مبتسم يعط أكثر ممن يعطى الكثير وهو عابس 89

٣٩- لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب 91

٤٠- حياةٌ لا تُختَبر، لا تستحق أن تعاش 93

٤١- المثابرة أم الحظ السعيد 95

٤٢- قلة المعرفة أمر خطر 97

٤٣- لا تسل عما يمكن أن يقدمه بلدك لك، سل عما يمكنك أن تقدمه لبلدك 99

٤٤- الحب أعمى 101

٤٥- لا تعر ولا تستعر 103

٤٦- الجمال فى عين الناظر 105

٤٧- السعادة تتوقف علينا 107

٤٨- إذا كان سليمًا فلا تحاول إصلاحه 109

٤٩- يضيع الشباب هباءً على الشباب 111

٥٠- لا تستطيع أن تحكم على الكتاب من عنوانه 113

٥١- كل الرجال مغتصبون 115

٥٢- البرق لا يضرب المكان نفسه مرتين 117

٥٣- من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر 119

٥٤- ما لا تراه العين، لا يأسى له القلب 121



٥٥- أُفضل أن أحترق على أن أنوى بعيدًا 123
٥٦- القلق فائدة تدفعها عن مشكلة قبل ميعاد استحقاقها 125
٥٧- لو لم يكن الله موجودًا لكان كل شىء مباحًا 127
٥٨- الشيطان الذى تعرف أفضل من الشيطان الذى لا تعرف 129
٥٩- أنا أفكر إذًا أنا موجود 131
٦٠- اتبع قلبك 133
٦١- ليس الفقير من يملك القليل، ولكن الفقير من يشتهى المزيد 135
٦٢- الإحسان يبدأ فى البيت 137
٦٣- الطريق للجحيم مفروش بالنوايا الحسنة 139
٦٤- هناك توقيت مناسب لكل شىء 141
٦٥- الحب لا يشترى 143
٦٦- الفضيلة جزاء الفضيلة 145
٦٧- الضمير يجعلنا كلنا جبناء 147
٦٨- الانتقام طبق يمكن أن يؤكل باردًا 149
٦٩- الحياة المليئة بالأخطاء ليست جديرة بالتقدير فحسب، وإنما هى أكثر فائدة من تلك التى لا يفعل فيها الإنسان شيئًا 151
٧٠- الإنسان مقياس كل شىء 153
٧١- يمكنك اقتياد الحصان إلى الماء ولكنك لا تستطيع أن تجعله يشرب 155
٧٢- ليست الكثرة على صواب دائمًا، قد يقدم الكثير من الناس على خطأ فادح تمامًا مثل القلة منهم 157



٧٣- المياه الساكنة عميقة 159
٧٤- يجوب المرء العالم بحثاً عما يحتاج، ويعود إلى بلده ليجده هناك 161
٧٥- يُعرف المرء برفاقه 163
٧٦- الندم على ما فعلنا يمكن أن تخف حدته مع الوقت، أما الندم على الأشياء
التى لم نقم بها فلا عزاء له 165
٧٧- عندما يوصد باب يفتح آخر 167
٧٨- لا كرامة لنبى فى وطنه 169
٧٩- يشترك اثنان فى مشكلة فيقتسمانها 171
٨٠- الموت لا شىء بالنسبة لنا، فبينما نحن موجودون الموت غير موجود
وعندما يأتى الموت لا وجود لنا 173
٨١- يرى المتشائم نصف الكأس الفارغ، ويرى المتفائل نصفه الملآن 175
٨٢ لا تحتفظ فى بيتك بشىء لا فائدة له أو يفتقر للجمال 177
٨٣ - السلامة أفضل من الندم 179
٨٤ - أفضل الناس يفتقرون الإيمان الراسخ بينما أسوأهم يجيشون
بالحماس المتقدم 181
٨٥ دع الكلاب النائمة راقدة 183
٨٦ طريق الحب الحقيقى ليس ممهداً على الدوام 185
٨٧ الحقيقة فى النبيذ 187
٨٨ الشىء الوحيد الذى يجب أن نخافه هو الخوف نفسه 189
٨٩ عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به 191



٩٠- عندما تكون فى روما افعل مثل أهلها 193

٩١- الصبية هم الصبية 195

٩٢- العبقرية: ١٪ إلهام و ٩٩٪ جهد 197

٩٣- تذرف الدموع على الدعوات المستجابة أكثر منها على تلك غير المستجابة .. 199

٩٤- أن تعرف كل شيء هو أن تغفر كل شيء 201

٩٥- يحصد المرء ما زرعته يداه 203

٩٦- العشب دائمًا أكثر اخضرارًا على الجانب الآخر 205

٩٧- وردة بأى اسم آخر ستظل رائحتها عطرة 207

٩٨- لا نستطيع أن نأمر الطبيعة إلا إذا أطعناها 209

٩٩- أينما توجد الحياة، يوجد الأمل 211

١٠٠- تأتى المعرفة وتبقى الحكمة 213



شكـــر واجـــب

ظهرت بعض فصول هذا الكتاب من قبل كجزء من سلسلة بعنوان "حماقة الحكمة"، نشرت في صحيفة الجارديان من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٥، كما أخص بالشكر إيان كاتز Ian Katz لاحتضان الفكرة.

الشكر الدائم لحماسة ودعم فريق دار نشر جرانتا Granta وعلى وجه الخصوص لسارة هولواي Sara Holloway، وبريجيد ماكلويد Brigid Macleod، وكريستين لو Christine Lo، ولندساي باترسون Lindsay Paterson، وأنجيلا روز Angela Rose، وبرو رولاندسون Pru Rowlandson، وسارة وازلي Sarah Wasley، كما كانت توجيهات وآراء ليزي كريمر Lizzy Kremer قيمة جدًا، والشكر أيضًا لبيلا كونها Bella Cunha على اجتهادها وصبرها، وفريق مبيعات فابر وفابر Faber & Faber الذي عمل بجد لتصل كتبي إلى أرفف المكتبات، وقبل كل شيء الشكر لأنتونيا على كل شيء.




مكتبة
الفكر الجديد

تمهيد

حين سئلت عن الأقوال المأثورة، أجبت بقول لي هو: من لديه قول مأثور لكل موقف لا يفكر فى أى شىء.

أفضل الأقوال المأثورة والأمثال هى تلك التى تلخص أفكارًا مهمة بكلمات قليلة، لكنها من الممكن أن تكون مضللة، فقد تخدعنا بأن تجعلنا نظن أننا أصبحنا نمتلك فكرًا عميقًا بسبب ما فيها من فطنة وإيجاز. اختبرها وستجدها مليئة بالتعقيدات والخبايا.

على سبيل المثال، هناك قانون عام للحكمة الشعبية وهو أن لكل مثل مثلا مضادًا، فعندنا مثلا: "لا يمكنك أن تعلم كلبًا عجوزًا خدعًا جديدة"، ولكن لدينا فى الوقت ذاته: "الوقت ليس متأخرًا أبدًا"، ولدينا: "العقول العظيمة تفكر بطريقة متشابهة"، ولدينا: "ما يظنه شخص ما لحما، قد يكون سمًا بالنسبة لآخر"، و"عقلان أفضل من واحد"، ولكن "كثرة الطهاة تفسد الحساء".

هذه الأمثال لا ينسخ بعضها بعضًا ويتركنا صفر اليدين، ولكن كل مثل على حدة يمسك بجانب واحد فقط من الحقيقة؛ إنها تضللنا عندما يتحول إدراكنا بأن هناك شيئًا وراءها إلى افتراض أنه لا وجود لشىء.

القصد من وراء قولى هذا هو إيضاح وإعطاء أمثلة على مناقب ومثالب الأمثال والأقوال البالية، فمن ناحية ليس صحيحًا أن الشخص الذى لديه قول لكل شىء يمعن التفكير جيدًا، ومع ذلك فإن هذا القول يمسك جيدًا بحقيقة خطر الخلط بين معرفة منابع الحكمة، وكون هذا الشخص حكيمًا بالفعل؛ فالببغاء الذى لا يردد سوى كلمات العقول العظيمة لا يملك هو نفسه عقلا عظيمًا.



لذا أردت العــودة للعــديد من الأقــوال المـأثورة التى نرددها كالببغاء دون أن نمعن التفكير فيها؛ إذ يمكن أن تتحول الحكمة إلى حمــاقة إذا ما رددناها دون تفكر أو تـدبـر.

الفرنسيون لديهم قول مفاده أن المثــل لا يمكن أن يكــذب؛ هذا احتمال، ولكن من الممكن أن يساء فهمه أو يساء استخدامه؛ فيفقد معناه الحقيقى. هدف هذا الكتاب هو إلقاء نظرة نقدية جديدة على الأمثال والأقوال المعـروفة لكى ننقيها من أى شوائب أو أفكار عالقة بها.

ولبلوغ هذا الهدف من الأهمية بمكان ألا أستبدل مجموعة من التفسيرات الملائمة بغيرها، على أننى أريد أن أستثير القــارئ للتمـعن فى الأفكــار المخبــوءة، وكأنه يقرأها لأول مرة؛ لذا تجدنى لا أحاول أن أجعــل مناقشتى شــاملة كـاملة، كما أننى لا أبوح بكل شىء، فـالهـدف هو حث القـارئ على التـفكـيـر والنظر للوصـول إلى رأى جديد يخصه هو.

هذا هو المنطلق الذى يجب أن يُرى من خلاله اختيارى لتلك الأقوال؛ ففى بعض الأحيان تجد علاقتها بالمناقشة الأساسية واضحه، وقد لا يكون الأمر كذلك فى أحيان أخرى، فـأحيـانًا نبلغ المقصد وأحيـانًا أخرى ينقلب الأمر علينا، وبالمثل فـإن هناك تداخلات وعلاقات بين العديد من الأقوال المائة التى هى أساس هذا الكتاب، وأنا واثق فى قدرة القارئ على ملاحظة ذلك واكتشافه بنفسه.

هذا كـتاب تحـاوره وتجـادله، فـهـو ليس مـرجـعًا أو دليـلا، والقـصـد من ورائه هو إشعال جذوة التفكير لدى كل من يريد التفكير لنفسه.



١- عصفور فى اليد خير من اثنين على الشجرة

(منتصف القرن الخامس عشر)

توضح التجارب أن عصفوراً فى اليد يساوى ٢,٤٨ على الشجرة، ولنكون محددين فإن "العصافير" كانت فى الحقيقة فناجين قهوة، ولكن بما أن الحيوانات دائماً ما تستخدم لضرب الأمثال فإن الفكرة تنطبق عليها.

قام أصحاب التجربة بتقسيم مجموعة من الأفراد بصورة عشوائية، وأعطوا نصف المجموعة فنجان القهوة لكل فرد، وفُرض عليهم أن يكونوا "بائعين" والقسم الآخر أخذ دور المشترين، وسُئل البائعون بعد ذلك كم يريدون مقابل التنازل عن فنجان القهوة؟ وسُئل الفريق الآخر كم يدفعون لشرائه؟ فى المتوسط قدر المشترون الفنجان بـ٢,٨٧$، وقدره البائعون بـ٧,١٢$، والحقيقة الواضحة هى أن البائعين – لأنهم يمتلكون فناجين القهوة – قدروا قيمتها بأنها أكبر مما لو كانوا لا يمتلكونها.

لوحظت ظاهرة كراهية الخسارة هذه فى مواقف أخرى كثيرة، ومع ذلك فهى غير معقولة، ويتضح ذلك أكثر من خلال تجربة أخرى أظهرت "تأثير العطاء". هذه المرة أخذ نصف الفريق شيئًا، والنصف الآخر أخذ شيئًا آخر، ولأن الأشياء وُزعت بطريقة عشوائية فقد تسلم بعض الناس أشياء لم تكن ذات أهمية شخصية بالنسبة لهم، إلا أنه عندما سئلوا ما إذا كانوا يريدون المقايضة كانت نسبة من أجابوا بالإيجاب من ١٠٪ إلى ٣٠٪، ومرة أخرى كان التملك هو الذى قاد الناس لتقييم الأشياء بأكثر من قيمتها الحقيقة.



من الأفضل بالطبع الاحتفاظ بما لديك عن المغامرة به من أجل المزيد، وهو المغزى من وراء المثل، لكن عندما تنعدم المخاطرة تمامًا نجد أنفسنا نحتفظ بما لدينا حتى إذا كان من مصلحتنا أن نتخلى عنه. عصفوران على الشجرة صعب اصطيادهما قد لا يساويان شيئًا إذا كان فى يدك واحد، ولكن إذا كان بإمكانك أن تصطادهما بسهولة، فمن الحماقة ألا تفعل ذلك، وتكتفى بما فى يدك مهما كبر حجمه، فالتجارب توضح أن تلك الحماقة توجه طبيعى يجب أن نكافح لتجنبه[1].

قارن

- بيضة اليوم أفضل من دجاجة الغد. (مثل إيطالى)
- عصفور فى اليد خير من كركى[*] طائر. (مثل فرنسى)
- عصفور فى اليد خير من حمامة على السطح. (مثل ألمانى)

(١) انظر: The Boundaries of Loss Aversion' by Nathan Novemsky and Daniel Kahneman, Journal of Marketing Research, Vol XLII (May 2005) 119-28; and 'Experimental Tests of the Endowment Effect and the Coase Theorem' by Daniel Kahneman, Jack L. Knetsch, and Richard H. Thaler, Journal of Political Economy, Vol. 98 (December 1990), 1325-48.

(*) Crane: طائر الكركى طائر بحرى كبير. (المترجمة)



٢- السلوكيات الحميدة تصنع الرجال

الأسقف وليم ويكام من ونشستر

(١٣٢٤-١٤٠٤)

"السلوكيات الحميدة تصنع الرجال"، كان ذلك هو الشعار الشخصي للأسقف ويكام مؤسس كلية ونشستر، إحدى أقدم المدارس الحكومية فى إنجلترا، ففكرة أن يعطي قائد دينى كل هذه الأهمية لمفهوم بسيط مثل السلوكيات أو العادات الحميدة، قد يصدمنا كشىء عبثى، فالسلوكيات الحميدة ليست الأخلاق، وبتقدم الوقت والمكان ندرك مدى تعسفها وتفاهتها.

عندك على سبيل المثال بعض النصائح فى كتاب إتيكيت الدجال لچى. آر. إم ديفيرو: كتاب السلوكيات والعادات الحديثة، الصادر عام ١٩٢٩. "ليس من الضرورى أن ترفع القبعة إذا رأيت سيدة من معارفك فى حافلة عامة إذا كنت أنت أيضًا من بين ركاب تلك الحافلة"، "وفيما عدا ذلك يجب أن ترفع القبعة دائمًا عندما تقابل امرأة تعرفها"، على الرغم من أنه "لا ينبغى لك أن تسلم على سيدة وأنت ترتدى القفاز" نجده كذلك يشرح صيغة تقديم الناس للتعارف فى اللقاءات الاجتماعية: السادة من الرجال إلى من هم أقل شأنًا، الفتيات قبل الزواج للسيدات المتزوجات وصغار السن للكبار، وأكثر نصيحة عفا عليها الزمن هى "بعد اللقاء فى بيت صديق يجب أن تعطى بقشيشاً للخدم"، أو ربما كان اختيارى للأصدقاء اختياراً خاطئًا.

فكرة أن اتباع عادات كهذه هى التى تصنع الرجال أو النساء تبدو منافية للعقل، ومع هذا يجب ألا نخلط بين العادات المتغيرة والمبادئ الباقية التى تقوم عليها، وكما يقول ديفيرو "عمل اعتبار للآخرين هو أساس الإتيكيت".



السلوكيات حقيقة تعد أمرًا بسيطًا إذا تم تعريفها من خلال ممارسات محلية متغيرة فقط، ولكن إذا نظرنا إليها من منظور واسع، من حيث أهمية مراعاة الآخرين ومعاملتهم بطريقة حسنة، فهنا تصبح أساسية بالنسبة لأخلاق الحياة اليومية.

إذا كنت تظن أن السلوكيات ليست ذات أهمية لمن يريد أن يكون شخصًا أفضل، فتأمل العبارة الأخيرة من إرشادات ديڤيرو: "أفضل طريقة لتدريب أطفالنا على أن يكونوا رجالا ونساءً يتسمون بمراعاة الآخرين هو إحاطتهم بتلك الصفات منذ نعومة أظفارهم"، فالاهتمام بالسلوكيات يقودك للاهتمام بأمور أكثر أهمية بكثير من معرفة كيف يجب أن تمسك بالشوكة.

قارن

- الكياسة لا تكلف شيئًا. (أوائل القرن الثامن عشر)
- لم يولد ببنطال ويخجل من ارتداء الملابس. (مثل يونانى)
- التربية الجيدة هى إخفاء كيف نقدر أنفسنا؟ وكيف ننظر للآخرين نظرة دونية؟ (مارك توين ١٨٣٥-١٩١٠)



٣- أن تحب وتفشل أفضل من ألا تحب على الإطلاق

لورد ألفريد تينيسون (١٨٠٩-١٨٩٢)

كلمات لورد تينيسون الرشيدة "أن تحب وتفشل أفضل من أن تمارس الحب منفرداً" دبت فيها الحياة من جديد فى كتاب ظهر بعد المسلسل التليفزيونى الكوميدى "ليست أخبار التاسعة".

هذا التغير المتعمد، على الرغم من كونه هزلياً، فإنه يغير القول الأصلى فى أمرين تماماً مثل سوء الفهم العادى؛ الأول بالطبع هو المساواة بين الحب والجنس" أن تحب وتفشل" ليست مثل "أن تمارس الحب وتفشل"، على الرغم من أن ذلك قد يكون أفضل من عدم ممارسة الحب على الإطلاق.

ثانياً والأكثر أهمية، هو أن له تأثير تحويل التعزية إلى نصيحة أو تحذير؛ أن تظل أعزب طوال الحياة أو أن تكون لك علاقة جنسية قصيرة هو أمر يمكن، إلى درجة ما، التحكم فيه، فلو فكرنا أن الجنس السيئ أفضل من الوحدة فى ممارسة الحب، قد يكون ذلك دافعاً للبحث عن آخرين لديهم نفس المشاعر وسيسعدون برفقتنا.

ولكن على الرغم من أن الاتصال الجنسى قد يكون بين أشخاص بالغين متفقين، فإن الحب لا يمكن ترتيبه بتلك السهولة، ولا يمكننا أن نختار الوقوع فى الحب، هكذا ببساطة؛ فالاعتقاد بأنه من الأفضل أن نحب ونفشل لا يقربنا من احتمالية الوقوع فى الحب؛ إن أفضل وقت لسماع تلك الكلمات بالأحرى، هو عندما يغيب الحب، لكى تساعدنا على التصالح مع هذه الخسارة.



ومع ذلك فكلمات تينيسون المأخوذة من "فى ذكرى إيه. إتش. إتش" In Memoriam A.H.H. تلفت الانتباه إلى أهمية الاستعداد للحب عندما يطرق الباب، فالمعنى هنا ليس أن أى علاقة أفضل من لا شىء. لو أردنا أن نكون منفتحين أمام إمكانية حب يستحق الخسارة، فيجب أن نحتفظ بشرارة من الرومانسية؛ لكى نؤمن حقًا بأن فى إمكاننا أن نحب ونفشل، فإن ذلك يتطلب منا أن نؤمن بأننا يمكن أن نحب أولا.

قارن

- الفرصة لا تدق الباب مرتين. (منتصف القرن السادس عشر)
- الجرىء يمتلك العالم. (مثل إسبانى)
- ألا تصوّب يعنى أنك أخطأت الهدف. (مثل هولندى)



٤- لا يوجد دخان بغير نار

(أواخر العصور الوسطى)

علىّ الرغم من أن الناس لا يزالون يرددون أنه لا دخان بغير نار، فالقليلون هم الذين يعتقدون فى صميم قلوبهم أن هذا القول حقيقة عامة. نعرف، على سبيل المثال، أن الكثير من الدخان الذى يملأ صفحات الصحف الصفراء التى تقوم على الشائعات عن الشخصيات العامة، ينبعث من نار تحترق فى بطون صحفيين طموحين. عندما يقول شخص بصدق لا دخان بغير نار، فذلك لأنه مقتنع بوجود اللهب وليس لاقتناعه بأن تلك المقولة تدعم شكوكه.

على الرغم من ذلك فإن هذا القول القديم المتهالك أمكر مما يبدو فى الظاهر، فإذا أخذناه على أنه يعنى أن هناك بعض الحقيقة فى كل شائعة أو فضيحة فإن ذلك يعد خطأ واضحًا وضوح الشمس، ولكن إذا أخذنا الصورة البلاغية فيه وقرأناها بطريقة حرفية فسنجد أنفسنا أمام فهم آخر. يمكن حقًا أن نستدل من الدخان على وجود نار، أما الذى لا نعرفه هو نوع هذه النار أو ما إذا كانت تنطفئ أم لا.

هذا إذًا مرتبط بالنميمة، أى أنه لا يظهر فى الفراغ، أما إذا لم يكن سبب الحريق حادث أو اشتعال طبيعى؛ فالسبب لابد أن يكون من جراء شخص كان يلعب بالثقاب. السؤال هو: من ولماذا؟

خذ أى قصة من قصص منافسات المشاهير، فالدخان المتصاعد نتيجة اختلافاتهم مع منافسين حقيقيين وحلفاء، لهم أهداف فى إشعال الصراع المتأجج، فالمؤكد هنا أنه لا دخان بغير نار، ولكن أين تشتعل النار الحقيقية؟ ومن الذى ينفخ فيها؟



يجب علينا ألا نفترض كسلا أن العلاقة بين الشائعة والحقيقة علاقة سبب ونتيجة، فقراءة إشارة الدخان تتطلب منا النظر بدقة لتحديد مصدره. انظر بدقة فقد تجد نيرانًا فى أماكن أبعد ما تكون عن توقعاتك.

قارن

- ارم ما يكفى من القذر، وسيلتصق بعضه بشيء ما. (منتصف القرن السابع عشر)
- حيث يقطع الخشب، تتطاير النشارة. (مثل بولندى)
- عندما تهب الرياح من كهف خالٍ، فلابد من أن يكون هناك سبب. (مثل صينى)



٥- لا فـائض
(نقش على جدران معبد أپولو فى دلفى)

(القرن السادس قبل الميلاد)

يمكن لمقدم النصيحة أن يكون على حق ولكن ليس دائمًا. على سبيل المثال، أنا عمك ولكنى لا أريد أن أضايقك؛ ولذا أريد أن أقدم لك النصيحة وأنا متأكد من جدواها: عند التسوق لا تشتر شيئًا باهظ الثمن، وفى الحب لا تتزوج الشخص الخطأ، والحرب شىء مروع لا تقدم عليه أبدًا إلا فى حالة ما إذا كان إحجامك عنها يكون هو الاختيار الأسوأ.

المشكلة هنا أن كل تلك النصائح تعامل كحقائق لا يعتورها الشك، فكل ما يحتاجه المرء هنا هو معرفة أساسية باللغة الإنجليزية حتى يعرف أن الشخص الخطأ والحرب أو أى شىء باهظ الثمن، كلها أشياء يجب تجنبها، فما نحتاج أن نعرفه هو ماذا يجعل شخصًا ما زوجًا غير مناسب، أو شيئًا ما باهظ الثمن، أو حربًا ما غير عادلة.

الحكماء السبعة الذين من المفترض أنهم ابتكروا النقوش على جدران معبد أپولو تكاد كلماتهم أن تكون خالية من أى معنى، فبالنسبة لهذه الوصية "لا فائض" هى أيضًا حقيقة لا يعتورها شك؛ فالفائض أو الزائد عن الحاجة خطأ، ومن يثنون على وجود الفائض هم فى حقيقة الأمر ينتقدون الأفكار التقليدية حول ماهية هذا الفائض، فالصعوبة تكمن فى معرفة وتقدير هذا الفائض وليس فى وجود فائض فى حد ذاته.

على سبيل المثال: ما الكمية الزائدة من المشروبات الكحولية. بالنسبة للممتنع عنها نهائيًا الكمية الزائدة هى رشفة واحدة وبالنسبة لسائق لينست أكثر من كأس،



وبالنسبة لتلميذ يريد السلوان فالكمية الزائدة هى عندما يصل مستوى الكحول فى الدم إلى تركيزات سمية.

هذه الوصية تعتبر خالية من أى معنى، فالقيمة التى تقدمها لنا متواضعة؛ هى مجرد تذكرة لنا بأن هناك مستوى مناسبًا أو كمية مناسبة لكل شىء، ويجب أن نكون حذرين فى ألا نتجاوز هذه العلامة، نصيحة قيمة بالتأكيد أما إذا كانت تستحق أن تخلد على حجر مقدس فذلك أمر آخر.

قارن

- القطرة الأخيرة تجعل الكوب يفيض. (منتصف القرن السابع)
- قدر كاف من الطعام فيه بركة مأدبة عامرة. (أواخر القرن الرابع عشر)
- الكسبرة جيدة، ولكن ليس الكثير منها. (مثل إسبانى)



٦- صاحب سبع صنائع ولا يجيد أيًا منها

أذاع أشعيا برلين مقولة تعود إلى الشاعر اليوناني القديم أرخيلوكس Archilochus: "الثعلب يعرف أشياء كثيرة، ولكن القنفذ يعرف شيئًا كبيرًا واحدًا"، وإذا سألنا أيهما أفضل: القنفذ أم الثعلب فسوف يبعدنا السؤال عن حقيقة الأمر؛ كلا الحيوانين لديه نقاط ضعف ونقاط قوة.

صاحب الصنائع السبع المشهور هو الثعلب المعروف بسطحيته، ولكن هناك جدلا اليوم بخصوص مشكلة أكبر، وهي مشكلة انتشار أعداد من القنافذ الهزيلة التي تتقن شيئًا واحدًا، فالتخصص الأكاديمي على سبيل المثال قطع شوطًا كبيرًا لدرجة أنك يمكن أن تجد زميلين من المفترض أن يكونا خبيرين في العلم نفسه، وتجد بينهما أرضية علمية مشتركة، وهذا مهم لأن الإبداع في الأفكار يتطلب القدرة على إيجاد روابط بين الأشياء، وإذا كنت تعمل في منطقة واحدة صغيرة، فسوف تفوتك مناطق أخرى كثيرة.

التخصص الزائد عن الحد قد يكون مشكلة في العمل، فالناس على خطوط الإنتاج يصيبهم الملل والإحباط، والشركات التي تصنع شيئًا واحدًا عرضة للانهيار في السوق أو في مواجهة منافسة قوية.

وفي الوقت نفسه لكي يكون الثعلب سعيدًا، فهذا ليس بالأمر السهل، فالتكنولوجيا تعني أننا كلنا يمكن أن نصبح مصورين ومخرجي أفلام ومؤلفي موسيقى الآن دون الحاجة إلى أن نقضي سنوات لكي نتمكن من أدوات المهنة.



لو كنا فى بعض الأحيان نحتاج بالفعل إلى أن نكون مثل صاحب الصنائع السبع، فهل هناك أى حقيقة تبقى فى هذا القول؟ نعم! وهى توجد فى كلمة "معلم"؛ لكى نتفوق فى شيء ما نحتاج إلى التركيز وتكريس الوقت. أعداد كثيرة من الناس يمكن أن يصبحوا مصورين جيدين مع وجود عدسات الكاميرات الرقمية المتطورة، ولكنك لكى تكون مصوراً ممتازاً يجب أن تبذل الوقت والجهد؛ لذا فالسؤال الذى يجب أن نسأله لأنفسنا هل نريد أن نحاول أن نكون مهرة فى شيء واحد (وربما نفشل)، أم نفضل أن **نكون أكفاء فى أشياء عديدة؟ هذا أمر يتعلق بالاختيار. "كيف نختار؟" هو بالفعل سؤال** مفتوح، وإذا لم تكن معلماً بحق فعليك أن تختار.

قارن

- التنوع يعطى للحياة معنى. (أواخر القرن الثامن عشر)
- الكمال ينمو مع الزمن. (چوزيف هول **Joseph Hall 1574-1656**).
- فكر الإنسان مجبر على الاختيار ما بين الكمال فى الحياة والكمال فى العمل. (وليم بطلر بيتس ١٨٦٥ - ١٩٣٩)



٧- الإنسان ليس جزيرة منعزلة

چون دون (١٥٧٢-١٦٣١)

إحدى النكات عميقة المغزى تلك المقدمة فى كتاب مونتى بيثن Monty Python حياة براين جاءت على لسان شخص غير مسيحى سُمى الكتاب باسمه لمجموعة من الأشخاص العابدين "أنتم أفراد".

وردوا جميعًا بقول واحد "نعم كانا أفراد" فيما عدا رجل يدعى دينس الذى انبرى قائلاً: "أنا لست كذلك".

تلتقط الدعابة التناقضات والمفارقات التى تظهر عندما نفكر فى طبيعة الفردية الإنسانية، ففى مواقف مختلفة نجدنا ميالين لنتائج مختلفة حول تمايزنا، وفى بعض الأحيان يبدو من الواضح أننا كلنا مترابطون ونعتمد على بعضنا بعضًا، وبالفعل ليس كل إنسان "جزيرة منعزلة"، ولكن فى أحيان أخرى يمكن أن نتفق مع قول مارلو Marlow فى رواية كونراد Conrad قلب الظلام Heart of Darkness: "نحن نعيش كما نحلم بمفردنا". إذًا هل الأصل هو أننا مترابطون ومتصلون أم منعزلون عن بعضنا بعضًا؟

يبدو "دون" وكأنه يتعامل مع نظرية الترابط بطريقة جدية حقًا؛ فقد كتب "وفاة أى إنسان تقلل منى أو تنقص منى شيئًا، وذلك لأنني متضمن فى البشرية". يبدو أن هذا الرأى يتعارض مع رأى "مارلو"، ولكنه يبدو وكأنه مبالغة رومانسية كذلك. يموت أناس فى كل لحظة، وفى الغالب بطرق مروعة، ولكن فى نفس تلك اللحظات تجد أشخاصًا آخرين يضحكون، وفى الغالب على أشياء تافهة، ولو كان موت الآخرين يؤثر سلبًا علينا فذلك بدرجة ضئيلة لا نكاد نلحظها.



خذ الادعاءين بصورة أقل حرفية، وسترى كيف أن كلا منهما يقبض على جانب مختلف من التجربة الإنسانية؛ نعيش الحياة من الداخل للخارج ولا يوجد شخص مهما كانت درجة قربه منا يستطيع أن يدخل فيها معنا. بهذا المعنى نحن بالفعل منفردون، ولكن القليل هم من يستطيعون العيش بمعزل عن الآخرين؛ ولأننا واقعون فى شرك نفوسنا فغالبًا ما نتطلع للخارج ونفتح نوافذ لبعضنا بعضًا كى نتبادل الخبرات بقدر المستطاع.

لا يوجد تناقض هنا، بل شد وجذب. نحن حيوانات اجتماعية عامة ذات خيارات فردية خاصة. قد لا نكون جُزرًا، لكن تظل هناك حدود بين كل نفس وغيرها لا يمكن تخطيها.

قارن

- يسافر أسرع، من يسافر بمفرده. (أواخر القرن التاسع عشر)
- الوحدة خير من جليس السوء. (مثل فرنسى)
- من يأكل بمفرده يمت بمفرده. (مثل إيطالى)



٨- انسَ وصافح

وليم شكسبير (١٥٤٦-١٦١٦)

على الرغم من أن الصفح يعتبر فضيلة على مدار معظم التاريخ الإنسانى، فإن ربطه بالنسيان تطور حديث، ففى العصر الڤيكتورى قال رئيس وزراء سابق يدعى آرثر چيمس **Arthur James** على سبيل الدعابة والسخرية: "أنا لا أصفح أبدًا، ولكننى دائمًا ما أنسى". هذا وقد ظهر المثل الأمريكى "من الجيد أن نصفح، ومن الأفضل أن ننسى" فى منتصف القرن العشرين فقط.

على أية حال، العبارة المعروفة "اصفح وانس" تعود إلى مسرحية شكسبير التراچيدية "الملك لير" وإن كانت محرفة بعض الشىء؛ فالفجوة ما بين أصل العبارة واستخدامها الشائع تفسر من خلال حقيقة أن شكسبير لم يكن قد أخذ وضعه ومكانه كشاعر بريطانيا الأعظم حتى القرن الثامن عشر، حينما دافع عنه رواد المدرسة الرومانسية فى الشعر، وهنا على وجه التحديد نبدأ فى رؤية تنويعات لاستخدام عباراته.

الآن تستخدم هذه العبارة كنصيحة إرشادية، ولكن أن نستعير ونحور قولا آخر لشكسبير، فتلك نصيحة تحترم الاختلاف معها أكثر منها فى اتباعها، فالناس يوصون بها ولكنَّ قليلين هم المقتنعون بها، وكما قال توماس زاز **Thomas Szasz** "الغبى لا يصفح ولا ينسى، والساذج يصفح وينسى، والحكيم يصفح ولكنه لا ينسى".

فى مسرحية "الملك لير" نجد الملك الذى سميت المسرحية باسمه يردد هذه العبارة فى الفصل الرابع عندما يصيبه المرض ويملؤه الندم والتخبط، يقول لابنته



كورديليا: "لو لديك سم سأتجرعه، أعرف أنك لا تحبينني ولك أسبابك"، ثم يكمل لاحقًا "يجب أن تتحمليني، صلي الآن، انسي وصافحي: أنا عجوز وأحمق".

نصيحة النسيان والصفح هذه تأتي كرجاء من المذنب، وليست نصيحة محايدة للمظلوم، كما أنها رجاء من شخص في نهاية حياته يستحق التعاطف؛ ولذا فإن الصفح والنسيان يعتبران شكلا متطرفًا للرفق واللين يمكن منحهما في حالات خاصة وليس بشكل روتيني؛ فيجب أن نتذكر ذلك قبل أن ننشد النسيان.

قــارن

- الخـطـــأ إنســـاني والـغــفـــران ربـــاني. (ألكسندر بوپ Alexander Pope ١٦٨٨-١٧٤٤)
- ننسى لأننا يجـــب أن ننسى، وليس لأننـــا ســـوف ننسى. (مـــاثيـــو أرنولد Mathew Arnold ١٨٢٢-١٨٨٨)
- الكل يقول إن الصفح فكـرة جميلة، إلى أن يجـــد شيئًا يصفح عنه. سي. إس لويس C.S. Lewis (١٨٩٨-١٩٣٦)



٩- الممارسـة تؤدى إلـى الإتـقان

(منتصف القرن السادس عشر)

يدّعي مالكوم جلادويل Malcom Gladwell في كتابه القيم المتطرفة أن "الباحثين استقروا على ما يعتبرونه الرقـم السحرى للخبرة الحقيقية وهو ١٠,٠٠٠ ساعة"، فهـل يعنى ذلك أن العلم قـد أظهـر مقـدار الممارسة المطلـوب لبلـوغ حد الكمـال أو الإتقـان؟

١٠,٠٠٠ ساعة رقم محدد يثير الشك، ولكن طبيب الأعصاب دانيل ليفيتين Daniel Levitin يدعى أن هـذا الرقم تؤكده الدراسات واحدة تلو الأخرى، وقـد توصل إليـه أولا عـالم النفس كى أندرز إيريكسون K. Anders Ericsson الذى أوصى بهـذا العدد من ساعات الممارسة لعازفى الكمان الموهوبين ليصبحوا عازفين مهرة.

لو افترضنا أن البحث صحيح وقـائم على أسـس صحيحة فماذا يوضـح إذاً؟ لا أحد يدعى أن أى شخص يمكن أن يصبح خبيراً مـا دام قد بذل جـهداً فى التدريب، وقد اعتمدت دراسة إيريكسون على طلاب كانوا قد قُبلوا فى أكاديمية برلين للموسيقى، وهى مؤسسة علمية مرموقة. يمكن لعشرة آلاف ساعة أن تحفـز وتشحذ إمكاناتك، ولكن مهما أمضينا من الوقت ممسكين بإبرة وخيط، فإننا لا نستطيع أن نصنع حافظة نقود حريرية من أذن أنثى الخنزير.

وقد قـدم فريق البوب التـجريبى "سـباركس Sparks" تحديداً آخر لهذا المثل فى أغنيتهم "كيف أصل إلى صالة كارنيجى؟ وجاءت الإجابة الأسطورية بالطبع "التدريب". ويرد الجـمـهور بصـوت يصم الآذان "أنا مسـتـعد"، ويغنى راسل مـال Russell Mael،



ولكننى" ما زلت لا أرى أى أثر لك"، حتى عندما يحسن التدريب من مهاراتك، فليس هناك ضمان على أن إنجازك سيدركه الناس.

فى الحياة اليومية نشجع بعضنا بعضًا بفكرة أن التدريب والممارسة يوصلان للإتقان، ليس لأننا نحاول أن نكون معلمين حقيقيين، ولكن لأننا ببساطة نود أن نكون أفضل، فقاعدة العشرة آلاف ساعة يساند المنطق فى توضيحها كيف أن حتى أكثر الناس موهبة لا يزالون فى حاجة إلى الممارسة والتدريب، ولكن التحذيرات التى تحيط بهذا الادعاء تجعلنا نتساءل عن مدى فائدة هذه النصيحة. يتوقف مقدار التحسن فى التدريب على إمكاناتنا واستعدادنا، وهناك بعض الأشياء التى تتطلب وقتًا طويلا للوصول لدرجة جيدة؛ لذا فقد يكون من الأفضل أن نركز طاقاتنا على شىء آخر، فلو لم يكن هناك مقدار أقل من عشرة آلاف ساعة ليضمن لنا التحسن والوصول للأفضل، وإذا لم يكن التدريب مجزيًا فى حد ذاته فلا يمكن اعتباره استثمارًا حينئذ.

قارن

- إن لم تنجح فى البداية، حاول وحاول ثم حاول مرة أخرى. (أواخر القرن السابع عشر)
- لم يهبط علينا معلم من السماء بعد. (مثل ألمانى)
- النفخ فى الكير هو ما يجعل منك حدادًا. (مثل فرنسى)



١٠- الحب لا يفشل أبدًا

(الكورنثيون ١٣ :٨ 1 Corinthians 13: 8)

فى كل زفاف بالكنيسة تقريبًا وفى بريطانيا على الأقل يُقرأ الفصل الثالث عشر من الإنجيل من رسائل القديس پول إلى الكورنثيين، يقول پول: "الحب صبور، الحب عطوف، دائمًا يحمى، دائمًا يثق، دائمًا يأمل، دائمًا يثابر". لا يفشل أبدًا، بدونه نحن لا شيء.

وعلى الرغم من أن هذا الجزء مناسب جداً للزواج، فإنه فى حقيقة الأمر مختلف عما يبدو، والدليل يأتى من إنجيل الملك چيمس عندما يُرتب ثالوث الإيمان والأمل والحب الذى ينتهى عنده الفصل، ويصبح على هذا النسق المعروف: الإيمان والأمل والإحسان. وتغيب كلمة "الحب" بعد ذلك.

فى الواقع، الفصل ليس عن الإحسان أو الحب بالمعانى المتعارف عليها لهذه الكلمات، ولكنه عن agapé، وهى إحدى الكلمات اليونانية القديمة العديدة التى تترجم فى الغالب على أنها الحب، وغالبًا ما تعرف هذه الكلمة على أنها الحب المسيحى، رغم أنه من الواضح أنها سبقت العهد الجديد، أما الحب الرومانسى الذى نعتقد به فى حالات الزواج، وربما يضاف إليه بعض الألفة فيقال عنه eros.

يبدو أن هناك العديد من العرائس والعرسان الذين وقعوا ضحية لهذا النوع من الوهم اللغوى، ولكن من كان منهم يعرف المعنى الصحيح لكلمة agapé قد يجد فى تلك الفقرة دعمًا أكبر.



عندما أخبر المسيح أتباعه وطلب منهم أن يحبوا جيرانهم كان حينذاك يتحدث عن agapé الحب المسيحى، وليس عن الحب الرومانسى أو حتى الألفة. وبالطبع هذا معقول ومنطقى جدًا، أما الحب الرومانسى فهو شىء لا يمكننا أن نختار أن نعطيه لأحد. agapé أو الحب المسيحى على الجانب الآخر طوعى واختيارى، ويمكننا أن نحب جيراننا بهذا المعنى حتى لو كانت لدينا تحفظات بشأنهم.

وفى الزفاف، هذه التذكرة بأن مشاعر الحب ليست كلها مشاعر تلقائية تذكرة قيمة جدًا، **أما الانخراط فى التزام أبدى مبنى على أساس فرضية مسبقة بأن الحب** الذى جمعكما سيحافظ عليكما معًا للأبد فهى فكرة ساذجة. غالبًا ما يفشل الحب الرومانسى؛ فالقسم الزوجى المهيب يكون منطقيًا لو بنى على أساس الفهم بأن الحب الذى يربط بين الناس هو، على الأقل جزئيًا، حب نريده أن يكون وليس شيئًا شيطانيًا.

قارن

- سيجد الحب طريقه. (أوائل القرن السابع عشر)

- الحب يتغلب على كل شىء. (ڤيرچيل)

- الحب الذى يستمر طويلا هو الحب من طرف واحد. (دبليو سومرست موم W. Somerset Maugham (١٨٧٤-١٩٦٥).



١١- صوت الأفعال أعلى من الأقوال

(القرن السابع عشر)

قام رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير بتأجيل الحكم على سجل أعماله مرتين، قال فى المرة الأولى إن التاريخ سينوب عنه فى ذلك، وقال فى المرة الثانية إن الله سيقوم بذلك العمل، ولو لأحدهما أن يتكلم فسيحكم بناءً على أفعاله وليس أقواله، لكن المشكلة هى أن الأفعال لا تتحدث الإنجليزية.

سمع بول فوت Paul Foot على سبيل المثال "عن تورط بريطانى مشين فى غزو العراق واحتلالها"، كذلك عن "مواصلة سياسة المحافظين وتنفيذها بحماس"، أما بولى توينبى Polly Toynbee، وديفيد واكر David Walker من ناحية أخرى فكانا يعتقدان أن حكومة بلير جعلت بريطانيًا "أكثر غنى وأكثر عدلا وأكثر صحة وأكثر أمانًا وأفضل تعليما. هل تسمع شيئًا مختلفًا؟

ولأن الأفعال لا تتحدث بوضوح نجد أنفسنا أمام موقف غريب، حيث يوضح المؤيدون والمعارضون للحكومات مواقفهم بالإصرار على عدم تصديق ما يقولونه علانية. يقول المعارضون لا تستمعوا لما يقولونه عن الفرص والاختيار، انظروا إلى سجلهم فى زيادات الضرائب البيروقراطية والمركزية؛ أما المؤيدون فيقولون لا تستمعوا لما يقولون لإرضاء الصحافة الصفراء، انظروا إلى سجلهم فى إعادة توزيع الثروة والاستثمار فى مجال الخدمات العامة. تتحدث الأفعال بالفعل، ولكن فى نشاز أصوات متناحرة.



محاولة فهم معنى الأفعال هى محفوفة بالصعاب. خذ على سبيل المثال، كيف أن الناس يفعلون ما يمكنهم فعله فى وقت معين، وكيف أن المساحة المتاحة للمناورة فى مجال السياسة يمكن أن تكون صغيرة جداً، فعلى سبيل المثال، لو لم تكن أمريكا مصممة على غزو العراق وفقًا لجدولها الزمنى، هل كان يمكن لبلير أن يتصرف بطريقة مختلفة ويرسل بذلك رسالة مختلفة؟ سؤال صعب، ولكن دون إجابة، من المستحيل أن نعرف بالضبط معنى الأفعال التى أقدم عليها.

هذا لا يعنى بالتأكيد أن الأفعال لا تتحدث بصوت أعلى من الأقوال؛ فلكى تفهمها، لابد من أن تكون مترجمًا ماهراً.

قارن

- المثال أفضل من الوصية. (أوائل القرن الخامس عشر)
- يعرف العامل بعمله. (مثل فرنسى)
- الكاتب المتواضع القيمة يلوم قلمه. (مثل إسبانى)



١٢- ما لا يقتلنى يجعلنى أكثر قوة

فردريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900)

سئل مدافع عن العلم حديث العهد الاستشارات الفلسفية عن نصيحة يعطيها لوالد يرفض أبناؤه أن يقوموا بواجباتهم فى الأعمال المنزلية كى يكون المنزل مرتبًا ونظيفًا، وجاء اقتراحه بأن يُذَكّر الوالد الشباب غير المسئول بحكمة نيتشه "ما لا يقتلنى يجعلنى أكثر قوة".

إذا عُرضت هذه النصيحة على طفل مشاكس سريع البديهة ستكون إجابته على النحو التالى " لم لا تذهب بعيداً وتتركنى وشأنى؟ فهى لن تميتك بل تجعلك أكثر قوة". على الرغم من رداءة الإجابة من الناحية الأخلاقية، فإنها من الناحية المنطقية لا تشوبها شائبة.

إذا أخذنا مقولة نيتشه بصورة حرفية فسيكون معنى ذلك محاولة تفسير نيتشه بطريقة سطحية مروعة. فى الحقيقة تعد المقولة خاطئة؛ فالمصائب أو المحن تترك الناس فى حالة سقم نفسى وجسمى، وإذا لم يكن هذا صحيحًا لأصبحنا كلنا محطات مولدة للطاقة غير قابلة للتلف بعد إحالتنا إلى التقاعد.

حكمة نيتشه ليست عَرضًا لأمر ما بقدر ما هى قرار: سأحاول التأكد من كل تجربة أخوضها، مهما كانت سيئة سوف أحولها لصالحى. لو ارتكبت خطأ، سأتعلم منه، ولو مررت بمحنة وتجاوزتها سأفيد منها فى المستقبل.

لذا لا فائدة ترجى من جراء اقتباس نيتشه من قبل شخص يمر بوقت عصيب، ونتوقع فى هذه المقولة أن تكون عونًا له على اجتياز المحنة، فليس هناك حتمية مطلقًا



فى أنه سيجتاز المحنة ويكون أكثر قوة مما كان، فهذا يتطلب قوة إرادة وليست "إرادة نيتشه للقوة" لقلب البلاء لفائدة. الاعتقاد بأن المحن تقوينا فهم خاطئ لنيتشه لأن ما يقصده هو أن الأمر راجع لنا فى كيفية تعاملنا مع المصاعب. ما لا يقتلك قد يجعلك أضعف إذا سمحت له بذلك.

قارن

- ما لا يقتلك سوف يغذيك. (مثل إيطالى)
- ما لا يقتل، يسمن. (مثل إسبانى)
- بمرور الوقت قد تصبح عذاباتنا جوهر وجودنا. (جون ملتون John Milton ١٦٠٨-٧٤)



١٣- الاستثناء يثبت القاعدة

(أواخر القرن السابع عشر)

فى بعض الأحيان قد تضيع فكرة جيدة بين أشخاص عاطفيين بصورة صبيانية، يجعلونها مبهمة ومن ثم تصبح غير مفيدة، وبين مجموعة من مدعى العلم المتحذلقين الذين يطلبون منها التحديد، ومن ثم تفقد الصلة بغيرها.

فى هذه الحالة، يكون العاطفيون هم الأغلبية الذين يفهمون "الاستثناء يثبت القاعدة" على أنها تعنى أن "كل قاعدة لها استثناء" ويستخدمونها لتبرير الانحراف عن قاعدة أخلاقية (ولكن السرقة خطأ)، أو عن قاعدة حقيقية (لم يثر شخص من المراهنة على الخيل)، وفى كلتا الحالتين المقتنع بأن القاعدة لا تنطبق عليه، سوف يتحدث ولكن عن قلة وعى بالاستثناءات.

أما إذا كانت هناك استثناءات للقاعدة، فذلك يتوقف على القاعدة نفسها. قوانين الفيزياء ليس لها استثناءات، على الأقل فى المواقف التى يجد فيها شخص متوسط الحجم نفسه. قاعدة "لا تسرق" قد يكون لها استثناءات، ولكن توضيح هذه الحقيقة لا يبرر فعل السرقة إلا إذا شرحت لماذا تعد استثناء فى هذه الحالة.

مُدعو العلم يستبعدون الاستخدام الشائع لأنه غير لائق. كلمة "يثبت" بالإنجليزية **prove** جاءت من الفرنسية القديمة **prover**، والتى جاءت بدورها من اللاتينية **probare** وتعنى يختبر؛ فالاستثناءات، ببساطة، لا توضح وجود القواعد، فهى تختبرها لكى نراجعها لكى تلاءم ملاحظات هى فى الغالب لا تلائمها.



هذا معقول، ولكن ليس له استخدام فى حديثنا اليومى، ولكن لحسن الحظ هناك طريقة لفهم العبارة تعد معقولة وصحيحة بالنسبة لاستخدامها فى القرن السابع عشر. كى يتسنى لنا أن نلاحظ أن شيئًا ما استثناء لقاعدة، يجب علينا أن ندرك أن هناك قاعدة فى المقام الأول؛ لذا فالاستثناءات توضح اختلافها عن القاعدة كما توضح القاعدة فى الوقت ذاته، فليس هناك تبرير زائف هنا أو إعجاب متحذلق لإتيمولوچيا العبارة: فقط أسلوب بليغ يمسك بحقيقة حياتية يومية.

وبالمناسبة يمكن أن نسأل هل "لكل قاعدة شواذ" استثناءات؟ إن لم يكن هناك، فهى؟ إذًا خطأ، ولكن إن وُجد، فهناك إذًا على الأقل قاعدة واحده ليس لها استثناء وهى أن "لكل قاعدة شواذ". إذًا المبدأ هنا خطأ فى الأساس لأنه لو كان ذلك صحيحا فهو أمر خطأ.

قـارن

- ليس للعلم أعداء سوى الجاهل. (منتصف القرن السادس عشر)
- عصفور واحد لا يصنع ربيعًا. (منتصف القرن السادس عشر)
- من النادر أن تقف النظريات صامدة أمام الممارسة. (أنتونى ترولوب Anthony Trollope (١٨١٥-٨٢)



١٤- كل العائلات السعيدة تشبه بعضها بعضًا، ولكن كل عائلة تعسة فريدة فى تعاستها

ليو تولستوى Leo Tolstoy (1828-1910)

عندما يفتقد الأطفال شيئًا يتوقون إليه بشدة غالبًا ما يقولون "أنا لم أكن أريده على أية حال"، فعادات الصغر عادة ما ترسخ، وكل الناس ينشدون السعادة، ولكن ليس بأى ثمن. القليلون هم من يحصلون على السعادة بسرعة كبيرة، وحتى عندما يحدث ذلك فإنها تكون سعادة هشة. بدلا من العيش مع نواقص الحياة يعد القول "أنا لم أكن أريده على أية حال" مغريًا إلى حد بعيد، فنحن نقول لأنفسنا إن السعداء من الناس إما أغبياء أو مملين أو كليهما معًا.

هذا الاعتقاد لا نبوح به أو نفصح عنه بوضوح، ولكن فكرة أن المأساة هى على نحو ما مؤشر على العمق، تعتبر فكرة ضمنية فيما نقول أو نفعل، ولكن تولستوى خان هذا التحيز فى تعليقه عن العائلات السعيدة. يتضح خطأ ادعائه من خلال الضد المنطقى. تتصف العائلات التعسة إما بالصراع أو التوتر أو الجدب العاطفى تحت السطح الهادئ، وغالبًا ما يصحب ذلك غياب الحب؛ ولكن العائلات السعيدة من ناحية أخرى تأتى فى أشكال عدة؛ خذ العلاقة الزوجية أولا. بعض الأزواج متوافقون جداً وغيرهم مستقلون عن بعضهم بعضًا. بعضهم يستمر فى التوهج الجنسى، والبعض فى الدفء العاطفى، والبعض يستمر بقدر قليل من الحميمة. البعض مخلص بشدة فى حين أن البعض يتسامح مع نزوات خيانة عرضية أو حتى مستمرة. أضف إلى ذلك تعامل الآباء مع الأبناء وسيكون لديك تنوع هائل.



المحتمل هو أن العائلات السعيدة وغير السعيدة كلها هائلة فى تنوعها. إذاً لماذا تسود فكرة تشابه العائلات السعيدة؟ ربما هو عدم تقبل فكرة أن الحياة غير عادلة. لو أن بعض الناس كانوا أكثر سعادة من غيرهم فمن العدل أن يدفعوا ثمنًا مقابل ذلك، وكونهم محبطين أو مملين هو ثمن يناسب هذه المعادلة. وبالمثل، تكون الحياة تعسة بالنسبة لنا، ولكننا رجال ونساء ذوو معادن صلبة.

ولكن كما قال چون ستيوارت ميل **John Stuart Mill** حتى لو أنه صحيح القول "من الأفضل أن أكون إنسانًا غير راض عن أن أكون خنزيرًا يتمتع بالرضا والسعادة"، ليس كل السعداء خنازير، ولا يجعلنا عدم الرضا أكثر نبلا، ولكن أكثر تضررًا من جرائه.

قارن

- متع الآباء سرية وكذلك أحزانهم وخوفهم. فرانسيس بيكون **Francis Bacon** (١٥٦١-١٦٢٦).
- قد يمر صبى ببعض المحن يكون لها تبعات أسوأ من أن يكون له أم رءوم. سومرست موم **Somerset Maugham** (١٨٧٤-١٩٦٥).
- إنهم يشوهونك، والدك ووالدتك. فيليب لاركن **Philip Larkin** (١٩٢٢-١٩٨٥).



١٥- لا كسب دون عناء

(أواخر القرن السادس عشر)

قانون المتناقضات هو ما أطلق عليه الحكمة الشعبية، ومفاده أننا كى نقدر قيمة شيء من الضرورى أن نختبر نقيضه أو ضده. أما النسخة الأضعف منه فتتطلب تجربة الجانب السيئ فى وقت ما . على سبيل المثال، يمكن أن تعرف معنى الحب فى حالة تعرضك لصدمة عاطفية. أما النسخة القوية فتصر على التعرف المستمر على الجانب المظلم، مما يجعل السعادة الدائمة حلماً بعيد المنال بالنسبة للبشر.

حقًا يبدو الناس فى العموم وكأنهم يحتاجون لتذكيرهم بالسيئ كى يقدروا الجيد، ولكنه ليس قانونًا ذا قبضة حديدية، فمن الممكن أن تشعر بقيمة ما لديك قبل أن تفقده، ولكن يمكن أن يكون ذلك صعباً، فالاعتقاد بأن السيئ تكملة ضرورية للجيد يعد مريحاً أكثر بطرق شتى، ووقتها تستطيع أن نخبر أنفسنا بأننا لم نضيع فرصة الأوقات الطيبة، فقط لم نستطع أن نستمتع بها، ونفيد منها بأقصى درجة.

خذ العمل على سبيل المثال فى دول عديدة، المحظوظون ممن وجدوا عملا يدفعون ثمنًا غاليًا مقابل ذلك، فهم لا يجدون وقتًا للأشياء التى يستمتعون بها حقًا، ويكون من السهل أن نطمئن أنفسنا بأننا نحتاج كل هذا العمل حتى نستمتع بأيام الإجازة، ولا نفضل مواجهة أنفسنا بأن حياتنا غير متوازنة.

فى مسرحية "الملك هنرى الخامس"، الفصل الأول، يقول شكسبير شيئًا بحذق شديد "لو كانت كل أيام السنة إجازات للهو وممارسة الرياضة ستصبح مملة مثل العمل"،



فليس معنى هذا أن الإجازات الطويلة ليست ممتعة. بل والأكثر من ذلك أن "الرياضة" ليست هى النشاط الممتع الوحيد الذى قد نمارسه بكثرة لو وجدنا الوقت، ولو أنه قال "لو أمضينا السنة كلها فى القراءة والرسم والاعتناء بالحديقة، فسيكون ذلك مملا مثل العمل" لما كان لمقولته وقع صادق فى نفوس قارئيه.

تفيد الحياة بالفعل من التضاد بين الضوء والظل، ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين العيش تحت مظلة خفيفة للوقاية من الشمس وكآبة الشتاء الإسكندنافى.

قارن

- لابد من لدغ النحل لكى تذوق حلاوة العسل. (مثل إسبانى)
- السنجاب الذى يأكل الخبز الجاف لن يعرف مذاق السكر. (مثل إيطالى)
- الفضائل تبرز المحن. فرانسيس بيكون **Francis Bacon** (١٥٦١-١٦٢٦).



١٦- إن لم يكن فى استطاعتك تحمل الحرارة، اخرج من المطبخ

ميچور چنرال هارى ڤوجان Major General Harry Vaughan

(١٨٨٨-١٩٦٤)

أتثق برجل يأتيك بمثل هذا الحل الذكورى البسيط بصورة مُخله لمشكلة ما؛ إما أن تبذل جهداً وإما أن تصمت. هكذا بتحد واضح، ولكنه يتجاهل حلولا أخرى أكثر قبولا. لِمَ لا نضع مكيفًا للهواء أو حتى نفتح الشباك؟ لمَ نستسلم لدرجة الحرارة فى حين أنها قابلة للتعديل والضبط؟

يتعاطف مع هذا التعبير المجازى أى شخص مهتم بحقوق المرأة فى مكان العمل. ففى الغالب كل مهنة لها أساليب معينة فى العمل ويتم إخطار العاملين الجدد بما يمكنهم عمله فى حالة عدم ارتياحهم لتلك الأساليب، وفى هذا تغاض عن حقيقة أن الأمور لا تحتاج أن تكون على هذا النحو على الإطلاق، وهى كذلك لأن الرجال الذين أداروها لقرون يفضلونها على هذا النحو، فالجلسات المتأخرة ليلا فى مجلس العموم على سبيل المثال ليست من ضمن متطلبات التشريع الديمقراطى، ولكنهم يجعلون الجو العام فى البرلمان أقرب ما يكون إلى نادٍ للرجال.

نجد نوعًا أكثر لطفًا ولكن ليس أقل تقييداً من الحرارة فى طقوس وتقاليد أوكسفورد وكامبردج، فارتداء ملابس مثيرة للضحك فى مناسبات معينة يبدو أنه لا يخدم هدف تعليم أفضل عقول البلاد. حقًا، فهى وسيلة لترسيخ الحماقة والسخف، ومع ذلك فهذا مع غيره الكثير من بنود فن التعامل مع الغير يمكنه أن يجعل من هم من أصول متواضعة يشعرون أن هذا مطبخ من الأفضل ألا يحاولوا أن يطهوا فيه شيئًا.



هذا القول صحيح بالتأكيد إذا طُبق بصورة حرفية: فمهنة رئيس الطهاة عمل شاق حقًا، وإذا كنت تميل بطبعك إلى الكسل فمن الأفضل أن تقوم بالأكل بدلا من أن تقوم بالطهى، وهناك مجالات شتى فى الحياة بها أمور شاقة، ويجب عليك أن تقبلها أو تمضى إلى حال سبيلك. لقد كتب لهذا القول البقاء عندما اقتبسه هارى ترومان فى سنة ١٩٥٢ بدلا من أن يفنده، وهو يشرح أسباب تقاعده.

ولكن فى مناسبات أخرى، لا تحصى، تجد الحرارة مرتفعة بصورة مبالغ فيها، وما يجب أن تطلبه هو التهوية وليس الاستسلام.

قارن

- لا يمكنك أن تصنع الأومليت دون أن تكسر البيض. (منتصف القرن التاسع عشر)
- تتقافز البراغيث على الكلاب المريضة. (مثل إسبانى)
- إذا قلت "أ" فيجب أن تقول "ب" كذلك. (مثل ألمانى)



١٧- يأتى المساء بالحل

(أواخر القرن السادس عشر)

من الغريب أن تكون إحدى النصائح الشائعة التى تقدم لأشخاص فى مواجهة قرار صعب هى أننا ندخل فى وضع لا نفعل فيه أى شىء، بل إننا حتى لا نعرف أننا لا نفعل شيئًا. ما مدى إسهام أخذ قسط وافر من النوم ليلا فى اتخاذ القرارات، فيما عدا مساعدتنا على التأجيل؟ هناك بالطبع أسباب وجيهة لعدم التسرع باتخاذ قرار إذا لم نكن مرغمين على ذلك، ولكنّ هناك أبحاثًا كثيرة ترى أن النوم فى حد ذاته وليس تمضية الوقت، يمكن أن يتقدم بفكرنا قدمًا، فى جانبين على الأقل.

الأول يتعلق بحل المشكلة. على سبيل المثال، فى تجربة ما تُعطى مجموعة من الأفراد عددًا من المهام مثل الألغاز التى تتطلب التفكير فيما سيأتى فى المربع التالى. ثم يخضعون لاختبار مرة أخرى فى نهاية اليوم. من أخذوا قسطًا من النوم فى فترة الراحة، يعملوا بشكل أفضل من غيرهم الذين لم يناموا. وتظهر الأشعة أن السبب وراء ذلك أن المخ "يتمرن" فى أثناء النوم ويدرب قدراته المطلوبة فى حل المشكلات التى كانت تشغلنا فى أثناء اليقظة.

الجانب الآخر الذى يغير النوم التفكير من خلاله قيمته مشكوك فيها على أية حال. فمعظم الذكريات تخبو مع الوقت سواء نمنا أم لا، ولكن هناك استثناءً واحدًا. هو ذكرياتنا عن الأشخاص أو الأماكن أو الأحداث المثيرة للعواطف، إذ يبدو أنها تتحسن بعد النوم ليلا[٢].

(2) 'Quiet! Sleeping brain at work', Robert Stickgold and Jeffrey M. Ellenborgen, Scientific American Mind, August/September 2008, 22-9.



الفرق هنا إذا ما كان ذلك يعتبر عائقًا أو عاملا مساعدًا؛ فلو كانت مشاعرك تجاه شيء ما هى عامل مهم فى القرار الذى يتعين عليك اتخاذه، فهى تساعدك على أن تنحى تلك التى لها تأثير أقل جانبًا، وتتقدم الأكثر تأثيرًا لتحتل مكان الصدارة فى تفكيرك، ولكن فى مناسبات عدة قد يؤثر هذا التأرجح على قرارك بصورة سلبية، فالنوم قد يساعدك على نسيان عوامل مهمة، ولكنها محايدة شعوريًا، والتركيز على عوامل أقل أهمية، وربما متغيرة وذات دلالات شعورية سلبية. على سبيل المثال، الحوائط التى أعيد طلاؤها فى بيت قد تذكرك بمكان تكرهه مما قد يؤثر سلبًا على رؤيتك لمزايا البيت الجديد.

النوم بعد التفكير فى المشكلة بمعنى النوم عليها، من المحتمل أن يلقى ضوءًا جديدًا عليها، ولكن هذا لا يعنى أننا يجب أن نتبع أى مشورة أو نصيحة تأتى بعد النوم.

قارن

- يأتى الوقت، تأتى النصيحة. (مثل ألمانى)
- ما هو سيئ فى الصباح، يصبح أسوأ ليلا. (مثل يونانى)
- أجل غضب المساء إلى الصباح. (مثل إيطالى)



١٨- قد أختلف معك فى الرأى، ولكنى أدافع باستماتة عن حقك فى التعبير عنه

(ڤولتير Voltair (١٦٩٤-١٧٧٨)

قد تنشر جريدة ما ادعاءات خاطئة من شأنها أن تدمر مهنة شخص. قد تنادى مجموعة من الأشخاص بكلمة "زنجى" لشخص أسود وحيد فى الشارع، وقد تواجه امرأة فى مكتب يعج بالرجال سيلا من اللغة والإيماءات الجنسية من زملائها فى العمل. هل كان ڤولتير حقًّا يرى، على الرغم من اعتراضنا على ما يقال فى كل حالة من هذه الحالات، فقد كان لكل متحدث الحق فى قول ما قال؟

أتمنى ألا يكون الأمر كذلك، فمبدأ حرية التعبير الذى كان يدافع عنه ڤولتير ينطبق بالتأكيد على ميدان الحوار المتحضر، فلا يوجد رأى تافه لا يرتقى لمرتبة المناقشة، وبالتالى الرفض على أساس المناظرة القوية وليس الرقابة، والمجتمع المفتوح يحتاج للتأكيد على أن هناك مساحة لكل الآراء لكى تُسمع وتنَاقش.

ولكن المشكلات تظهر عندما نفشل فى إدراك أن خارج الصالونات وغرف المناقشة لا تكون كلماتنا مجرد تعبير مسموع عن الفكر فقط، ولكنها تكون تصرفات لها تبعات، فالصحفية لا تعبر عن رأى فحسب، ولكنها فى الواقع تؤذى حياة إنسان. العنصريون يخلقون الخوف ويحرضون على العنف.

مستخدم الإيماءات الجنسية يدعم عدم التكافؤ فى العمل، وكما يقول الفيلسوف أوستن J. L. Austin نحن لا نتفوه بكلمات فحسب - نحن نفعل أشياء تصاحب تلك الكلمات اللفظية، من شأنها أن تجعل حياة إنسان مأساة. نشر الأكاذيب قد يُقلب الناس ضدك.



اللغة الجنسية فى مجال العمل أو الإساءة العنصرية فى الشارع ليست مساهمات فى الحوار، ولكنها هجوم على حقوق الآخرين سواء عن عمد أم لا، فهذا ليس حواراً، الأمر الذى يجعل أى استجداءات لحماية التعبير لا تجدى هنا لتبرير لغة تسبب الأذى.

العقدة هنا هى أن الكلام، على نحو ما، يعد أفعالا كما هو أقوال، ومن ثم الشكوى المتكررة من أن سماع الآراء المتحيزة يعطيها مشروعية، وهى معضلة يجب التعايش معها، فحدود حرية التعبير المقبولة لا يمكن تحديدها بدقة وستكون دائماً محل نقاش نتمنى أن يكون عقلانياً.

قارن

- الكلمات القاسية لا تكسر العظام. (أواخر القرن السابع عشر)
- لكل إنسان الحق فى التعبير عما يعتقد أنه الحقيقة، وفى المقابل يحق لأى شخص آخر الهجوم عليه. صمويل چونسون Samuel Johnson (١٧٠٧-٨٤).
- الحرية هى حرية القول بأن ٢+٢ = ٤ (George Orwell 1903-50).



١٩- حكيم مع القرش وأحمق مع الجنيه

(أوائل القرن السابع عشر)

اعتن بالقرش وستعتنى الجنيهات بنفسها

(منتصف القرن الثامن عشر)

اتخذت المعركة المشهورة بين الجنيهات والقروش منعطفًا مهمًا فى أوائل القرن السابع عشر ومنتصف القرن الثامن عشر، وقد انتصر الجنيه فى هذا النزاع، حيث كان الناس يهزءون بمن يهتم بـ(الفكة) من القروش غالبًا لإغفاله الصورة الاقتصادية الأكبر، ولكن بعد الحرب الأهلية الإنجليزية وبعد أحداث الحرائق والطاعون فى لندن وبدايات الغزو الإمبريالى عادت فجأة القروش فى الرواج باعتبارها وحدة العملة الرئيسية التى ينبغى أن نهتم بها.

هذا السرد الغامض والمشكوك فيه لن يعود للظهور فى أى من كتب التاريخ، وذلك لأن المثلين الأكثر شهرة فى اللغة الإنجليزية عن الجنيهات والقروش ليسا متناقضتين، بل مكملين لبعضها بعضًا.

الأول وهو "حكيم مع القرش وأحمق مع الجنيه"، يقال عندما ينفق الإنسان أقل القليل لإنجاز عمل ما وهو يتخيل أنه يدخر المال، فهذه الاقتصاديات الخاطئة لا تضع المصروفات فى السياق الأكبر والأطول أمدًا، ففى بعض الأحيان يتعين عليك أن تنفق أكثر لكى توفر أكثر.

من ناحية أخرى، معظم إنفاقنا ينصب على الأشياء الصغيرة. هنا من غير المحتمل أن يُغرى الشخص بما قد يوفره، ولكن ما يحتاجه هذا الشخص هو تجنب التفكير



فى التناقض الظاهرى فى الكومة؛ فاللغز القديم ماذا يحدث لو فكرت أن إزاحة حبة رمل واحدة من كومة لا يغير من كونها كومة فى شىء، فقد تزيح حبة ولا يزال لديك كومة، وبالمثل، ادخر القليل ومع الوقت سيصبح كثيراً.

المثلان أجزاء من الأحجية نفسها، فالاهتمام بالأشياء الصغيرة، وليس المال فقط، قد يكون له أثر تراكمى ملحوظ، ولكن هذا لا ينطبق عندما ترفض دفع مقدار مناسب من المال لشراء أشياء ذات نوعية جيدة؛ فالتدبير لا يكون بأن ندفع أقل القليل دائماً. حقًّا، الطريقة التى يمكن من خلالها التأكد من وجود الجنيهات معنا عند الحاجة، هو الانتباه إلى القروش عند عدم الحاجة إليها.

قــارن

- الإسراف المتعمد يؤدى إلى العوز المفجع. (أوائل القرن الثامن عشر)
- حبة وراء أخرى يمتلئ الجوال. (مثل يونانى)
- اجمع قروشك واشتر دجاجة. (مثل بولندى)



٢٠- رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة

لاو تسو Lao Tzu (C. 604 - 531 CE)

كتب الشاعر إدوارد يونج Edward Young يقول "التأجيل لص الوقت". حقًا، فاللص أضاع الكثير من الوقت الذى يمتد إلى عصور سحيقة، فالحصاد سهل، فبدلا من حراسة الوقت الثمين، نتركه يمر هنا وهناك كما لو أن لدينا منه مددًا لا ينفد.

نفعل ذلك لأننا نعانى من قصر نظر مؤقت، فكلما امتد أمامنا الوقت يبدو أن أبصارنا تعتريها غشاوة تؤثر سلبًا على رؤيتنا، وعندما يكون ما نريد بعيد المنال يصبح مشوشًا وغير واضح، وعندها يصبح من السهل أن نعتقد أنه غير موجود على الإطلاق، وعندما يصبح أمامنا وفى متناولنا نجد أنفسنا غير جاهزين لاستقباله.

السعى من أجل أهداف مستقبلية قد يعيقه اليأس الذى ينتج من بعد الشقة وطول المسافة؛ فبناء عمل أعوام على أساس دقائق وثوان قد يبدو مثل حفر نفق بملعقة، والعمل الإيجابى يتطلب الحافز، وليس هناك يوجد ما يثبط الهمم أكثر من التفكير فى أن مواردنا ليست كافية لكى ننجز العمل.

لذا تصبح فكرة رحلة الألف ميل التى تبدأ بخطوة واحدة فكرة جيدة هنا، فهى تذكير بأن كل الجهود العظيمة يمكن تقسيمها لأجزاء صغيرة يسهل القيام بها.

ولكن الخطر يكمن فى أن هذا التأكيد يمكن أن يوفر راحة زائفة، لأن بلوغ نهاية الرحلة من عدمه يتوقف ليس فقط على اتجاه السفر وإنما على السرعة كذلك.



من السهل أن تخدع نفسك بأن خطـوة صغـيرة فى الاتجـاه الصحيح تعد كافية، وأنك محتاج لأن تتحرك وفق سرعتك وأنت فى حقيقة الأمر لا تؤدى العمل بالقدر الكافى؛ فالقيام بعمل ما "حسب وقتك" أمر جيد ما دام لديك القدر الكافى منه.

ما نحتاج أن نتذكره هو أنه على الرغم من أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة فإنها تنتهى حينما نقوم بباقى الخطوات وهى ٩٧٢, ٥، كل خطوة فى وقتها؛ لذا لا تخش سماع صوت عربة الوقت وهى تقترب مسرعة، وتأكد فقط من أنك تسير مسرعًا حتى لا تتجاوزك العربة.

قــارن

- الضربات الصغيرة توقع الشجرة الكبيرة. (أوائل القرن الخامس عشر)
- البطىء الواثق يفوز فى السباق. (منتصف القرن الثامن عشر)
- ما تكون بدايته جيدة يكون نصفه أُنجز. (مثل إيطالى)



٢١- اصنع القش والشمس مشرقة

(منتصف القرن السادس عشر)

أمضت ناسكة عجوز حياتها فى طلب العلم ثم مُنحت أمنية واحدة، فأجابت الناسكة على القوى الخارقة التى منحتها الأمنية قائلة: "طوال حياتى عانيت من أجل أن أتقاسم الحكمة التى تعلمتها مع غيرى وفشلت؛ ولذا قررت اعتزال العالم، وإذا كان لك أن تضمن أن ترسخ أفكارى وتطبع وتقرأ على مستوى العالم، لكان لك أن تنقذنى من أكبر خيبة أمل.

تحققت الأمنيَة، وأدهشتها، عاشت المرأة عدة سنوات أخرى، وقررت أن تسافر لترى أثر تعاليمها، ولكنها تُصدم عندما تعرف أن الكل قد قرأ أعمالها بالفعل، ولكن يبدو أنهم يعتقدون فى عكس نواياها. عندها تدرك خطأها: أن يعرف الناس ما تقوله شيء، ولكن فهمه شيء آخر تماماً.

سوء الفهم الكامل ممكن، ويتضح ذلك من الطريقة التى يفهم بها الناس النصيحة القائلة بأن صناعة القش ينبغى أن تكون والشمس مشرقة. فهم على حق عندما يفهمون هذا الأمر على أنه يجب استغلال الظروف المواتية قدر الإمكان وطالما توفرت، ولكن كيف يفعلون ذلك؟ بأن يستمتعوا بأوقاتهم، فى اللحظة الآنية، لأنها قد تمطر غداً.

هذا عكس ما تنصح به الحكمة تماماً، فصناعة القش تتطلب العمل الشاق اليوم لمواجهة الأوقات الصعبة فى المستقبل، ويجب علينا أن نعمل وأن نجد والشمس مشرقة لا أن نلهو ونستمتع فقط، وإن لم نفعل ذلك فلن يكون بمقدورنا مواجهة الظروف عندما تسوء الأمور.



ومع ذلك فإن هذا التحوير ليس خطأ أو سيئًا بصورة تامة؛ فالشكل الأصلى والمحور لهذا المثل يقبض على جزء من الحقيقة. الحياة الجيدة تتطلب خلق نوع من التوازن بين الاستمتاع بالأوقات الطيبة ما دام أمكن ذلك، وكذلك الترتيب وإعداد العدة لأى أوقات صعبة مرتقبة قد تحدث. أولويات من يلهو ويستمتع ليست صحيحة دائمًا ولا أولويات من يعمل فقط. يتحتم علينا أن نعيش اليوم لنستمتع به ونواجه الغد، وليس أن نعيش اليوم بدلا عن الغد.

قارن

- اطرق الحديد وهو ساخن. (أواخر القرن الرابع عشر)
- الوقت والمد والجزر لا تمهل أحداً. (أواخر القرن الرابع عشر)
- لا وقت أفضل من الآن. (منتصف القرن السادس عشر)



٢٢- أولا... لا تتسبب فى ضرر

جالن Galen (١٢٩-٢٠٠)

الحكمة التى اتبعها الأطباء لآلاف السنين هى تلك التى يبدو أنها مناسبة للأفراد والحكومات. فعلى سبيل المثال قال الممثل بول إدينجتون Paul Eddington فى لقاء معه إنه يتمنى أن يكتب على شاهد قبره، ويكون صحيحًا بالفعل " لقد تسبب فى القليل من الأذى". كبح جماح الجانب السيئ من الطبيعة البشرية يعد إنجازًا أخلاقيًا حقيقيًا؛ القدسية أو الملائكية يمكن أن تأتى بعد ذلك.

ولكن كيف للمرء أن يتجنب إحداث ضرر؟ من العبث أن يقال " تجنب القيام بأى شىء إذا كان سيسفر ذلك عن بعض الضرر". الحمد لله أن تلك ليست الحكمة التى يتبعها الأطباء، فمن إرادتهم فى إحداث جرح لك فى جلدك كى يصلحوا قلبك، إلى قرار ببتر قدم للحفاظ على الساق، يتسبب الأطباء غالبًا فى بعض الضرر كوسيلة لهدف أكبر.

لنتجنب العبث يجب أن نفهم القاعدة على أنها تعنى أننا يجب ألا نترك الأشياء أكثر سوءًا مما لو تركناها كما هى دون تدخلنا، ولكن هذا لا يؤدى الغرض الذى يتمناه الكثيرون وهو ألا نتسبب فى ضرر، فعلى سبيل المثال، الكثير يستحضرون المثل كسبب لعدم خوض حرب. ما نعرفه هو أن الناس تموت عندما تقع الحرب. أولا لا تتسبب فى ضرر، إذًا عليك أولا ألا تتنازع مع أحد.

ولكن كما رأينا فالمبدأ يمكن أن يعنى أن الحرب ينبغى ألا تترك الأوضاع أسوأ مما قد تكون عليه بدونها، وبنظرة إلى الماضى يبدو أن حروبا كثيرة لم تحقق هذا الشرط،



ولكن عندما يتخذ قرار بالنزاع فهى عادة الحالة التى يعتقد فيها عقلاء كثيرون بأن الاحتفاظ بالقوات فى مكانها قد يحكم على أناس كثيرين بقدر أسوأ على المدى البعيد. فى تلك الحالات، من الذى يدعو إلى سلوك السبيل الأقل ضررا؟

هذا الضرب من عدم اليقين يؤثر على منطقة فى الحياة قد يسبب العمل منها قدرا من السوء الذى يوجد فى كل مكان بصورة أو أخرى. عدم التسبب فى ضرر طموح نبيل يستحق التقدير، ولكن من الصعوبة بمكان معرفة العمل الذى يتوجب علينا القيام به لمعرفة كيفية السعى وراءه وبلوغه.

قارن

- كلما قلبته أكثر فاحت منه رائحة كريهة. (منتصف القرن السادس عشر)
- اللعب بالنار يحرقك. (أواخر القرن التاسع عشر)
- شرارة صغيرة قد تضرم النار فى كل البرارى. (مثل صينى)
- معظم النار من مستصغر الشرر. (مثل صينى)



٢٣- إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب

(منتصف القرن التاسع عشر)

بعض الأقوال مفتوح وملتبس فقد يعنى بصورة أو أخرى المقصود منه. "السكوت من ذهب" أحد تلك الأقوال يمكن أن يردده هؤلاء الذين يدعون لفضائل حياة الرهبنة، أو الآباء الذين يريدون إسكات أولادهم، أو الأوغاد الذين يريدون إخفاء معالم أخطائهم، أو الخائفين من اهتزاز المركب... وغيرهم الكثير.

ومع ذلك فإن الصيغة الأصلية تشير إلى أمرين غامضين، غالبا ما يتم التغاضى عنهما الآن: أولا ظهرت العبارة فى وقت ارتفعت فيه منزلة الإتيكيت والأخلاق الحميدة إلى منزلة الفضائل، وليس كوسيلة لتحقيق هدف التحضر، فقد استخدمت فى الأصل لتشجيع الحذر، كما كانت فى جوهرها تهدف إلى ترويج الخداع الحميد، وقد يكون الحذر هو الجزء الأفضل من البسالة، ولكن من الجدير بالذكر أن القيمة المعطاة للسكوت فى هذه السياقات تعكس أوضاع اجتماعية قد لا نتفق معها.

ثانيًا: الصورة البلاغية فى استخدام الفضة والذهب ليست فقط تنويعًا للقيمة الحقيقية، ولكن فى انتظام الاستخدام؛ فأدوات المائدة الفضية على سبيل المثال تستعمل غالبًا أكثر من وعاء الحساء الذهبى، وعندما يكون السكوت من ذهب فهو ليس أغلى ثمنًا فحسب، ولكن يجب أن يستخدم على فترات متباعدة. ربما ينبغى على النساك البحث عن تعبير آخر.

ما تعيد هاتان النقطتان تأكيده هو أن للسكوت أشكالا عدة. فصمت عاشقين فى نظرة حب يعد مختلفًا عن صمت زوجين قديمى العهد بالزواج، ينظران لبعضهما عبر طاولة فى مطعم وهما لا يجدان ما يقولانه.



يمكن للسكوت أن يكون اعتياديًا، تكتيكيًا، قهريًا، منصتًا، غير منتبه، مهتمًا، غير مكترث، مُرحَبًا به، وقد يخشى جانبه. بعض أنواع السكوت هذه من الأفضل مقارنتها بالمعادن الأساسية أكثر من الذهب. فكر فى السياق المخزى الذى قد يقال فيه لأطفال "هذا هو سرنا الصغير - لا تخبر أحدًا".

ربما كان ذلك ما دعا فرانسيس بيكون Francis Bacon أن يقول "الصمت فضيلة الحمقى". تقدير السكوت فى حد ذاته هو أن نسىء فهم كيف أن قيمته العليا تكمن فى استخدامه الماهر، وليس فى اتباعه بإخلاص وبلا تدبر.

قارن

- الفم المغلق لا يدخله الذباب. (أواخر القرن السادس عشر)
- عظيم أن نعرف متى الكلام ومتى السكوت. سينيكا Seneca (AD 56-4 BCE).
- عندما لا يكون بمقدورك أن تتكلم، اسكت. لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١).



٢٤- القراءة للعقل مثل الرياضة للجسم

سير ريتشارد ستيل Sir Richard Steele (١٦٧٢-١٧٢٩)

إذا كانت القراءة هى رياضة العقل، فلابد من أن تموج بريطانيا بالطاقة الفكرية، فمحطات القطار، على سبيل المثال، بها محال تعج بكلمات تكفى لشغل أعتى عقل لأسابيع، العربات بالفعل مليئة بأناس تقدح زناد فكرها طوال الرحلة.

ولكن حقيقة أن هناك الملايين ممن يلتهمون يوميًا آلاف الكلمات من مجلات المشاهير والجرائد الصفراء وروايات المطارات، هذه الحقيقة لا توحى بأى أمل فى صحة التفكير العقلى، فليس المهم أن تقرأ فقط ولكن المهم هو ما تقرأ.

هناك مجموعة من الأسباب وراء فكرة أن القراءة تعتبر نشاطًا جيدًا بغض النظر عما يُقرأ، كان هناك من يدافع عن إنيد بلايتون Enid Blyton أمام النقاد على أساس أن القراءة هى عادة جيدة وينبغى أن نزرعها فى الأطفال، والكثيرون منهم ممن يحبون الكتب من خلال أعمالها سيتطورون يومًا ما ويقرءون أعمالا أكثر إعمالا للعقل. قد يكون ذلك صحيحًا ولكن الأمل فى أن الكبار الذين يقرءون مجلات مثل Heat وHello(*) سيتخرجون يومًا ما ويقرءون Economist، أمل لا محل له هنا.

تحتل القراءة مكانة عالية وذلك لأنها مهارة أساسية بدونها لا يمكن التقدم فى الحياة، وبينما هو سبب وجيه أن نكافح من أجل أن نصل إلى مستوى ١٠٠٪ من معرفة القراءة والكتابة، فذلك لا يضمن أن تكون القراءة حتمًا لتدريب وتنشيط وإعمال العقل.

(*) مجلات تقدم أخبار المشاهير وأخبار ترفيهية يعتبرها الكثيرون من الصحافة الصفراء (المترجمة).



ومع ذلك فإن الشعور بأن القراءة في حد ذاتها نشاط فكرى فكرة ثابتة وباقية، والأسوأ أن الكتب تحظى بتبجيل خاص لا يعطى لغيرها من أشكال الكتابة. يرثى الناس للساعات التى يقضيها الأطفال فى ممارسة الكمبيوت، ولكن معظم هذا الوقت يكون فى القراءة.

القراءة تغذى العقل تمامًا مثل غذاء الجسد، وهذا يعنى أنه يمكن أن نقوم بهذا إما بصورة جيدة أو سيئة ويتوقف على ما تتغذى عليه وما إذا كان مغذيًا ومفيدًا أو غير صحى.

قارن

- الكتاب مثل حديقة تحملها فى جيبك. (مثل أمريكى، منتصف القرن العشرين)
- المكتبة مستودع دواء للعقل. (مثل يونانى)
- يقول الناس إن الحياة هى أهم شىء، ولكننى أفضل القراءة. لوجان بيرسول سميث Logan Pearsall Smith (١٨٦٥-١٩٤٦).



٢٥- افعل ما تعظ به غيرك

(أواخر القرن الرابع عشر)

قد يكون السخط أو النقمة مبررًا عندما يكون استجابة لنفاق فج، ولكن قاعدة أن على المرء أن يفعل مثلما يقول ليست بدون استثناء، كما أنها لا تنطوى على ما ينسب إليها من مضامين.

سبب مشروع ألا نمارس ما نقول إنه تقسيم العمل؛ فمن يعطى الأوامر لا يقوم بعمل ما يمليه على الآخرين، وهذا مُبرر وإلا سيمنعهم ذلك من أداء عملهم بصورة جيدة. تُماثِل هذه الفكرة فكرة أخرى فى الحياة الأخلاقية. على سبيل المثال، لا يعتبر القس منافقًا، وقد أخذ على نفسه عهد التبتل والعزوبية، عندما يشجع رعيته على الزواج والإنجاب؛ فوفقًا لرأية ورأى الكنيسة فإن أدوار القس والزوج مختلفة. كذلك يمكن لأولئك ممن يشجعون على العمل الخيرى ألا يقوموا به بأنفسهم إذا ما كانت مواهبهم وأهواؤهم وظروفهم لا تؤهلهم للقيام بذلك. هناك على سبيل المثال، أسباب عديدة لرفض بعض أفراد العمل الخيرى التطوعى الذين يبادرونك بالكلام فى الشارع، ولكن حقيقة أنهم قد لا يكونون قد وقعوا على أمر التحويل المطلوب منهم، والذى يريدون توقيعك عليه، قد يكون لأنهم لا يستطيعون أن يقدموا شيئًا مثله.

حتى لو كان على أحد أن يفعل ما يقول ويفشل فى ذلك، فهذا لا يعنى أن نصيحته باطلة. ما يقال وما يوعظ به قد يكون طموحًا نبيلا، قليلون هم من يستطيعون تنفيذه حرفيًا. نصيحة أن تحب جارك دائمًا ما يفشل الناس فى القيام بها، ولكن الكثيرين يعتقدون أنها تستحق المحاولة.



النصيحة الجيدة التى يتبعها البعض يمكن أن تأتى من أشخاص إما ضعفاء أو حمقى لا يتبعونها هم أنفسهم. لذلك يكون الآباء السيئون أطباء نفسيين جيدين لأولادهم، ويكون مستشارو الإدارة الجيدة للمديرين غير الأكفاء، والمؤرخون قليلو البراعة يكونون مدرسى تاريخ جيدين. وكما كتب الفيلسوف تيد هندريش Ted Honderich "افعل كما أقول وليس كما فعلت"، فما يقال قد يكون هو التعليمات الصحيحة بالضبط.

قارن

- الكلمات الجميلة لا تغير من اللفت فى شىء. (منتصف القرن السابع عشر)
- يرتدى الإسكافى أسوأ النعال. (مثل فرنسى)



٢٦- أعظم حب هو حب الإنسان لأصدقائه عندما يقدم حياته لهم

إنجيل يوحنا John 15: 13

مطلوب منا بعض الجهد لكى نعتبر الإنجيل كلام الله الحرفى دون أن نشك فى قدرة خالقنا. خذ، على سبيل المثال، يوحنا (١٥) الذى نقل عن المسيح قوله" أنتم أصدقائى ما دمتم فعلتم ما أمرت". هذا التعريف للصداقة عادة لا يُعطى خارج ساحة اللعب فى المدرسة الابتدائية. المؤمن، على أية حال، يقبل ببساطة أن المسيح هو صديق خاص جداً لا مثيل له وله قواعده الخاصة.

الأكثر إشكالية من ذلك، فكرة أن أعظم أفعال الحب هى أن يقدم المرء حياته لأصدقائه. وفى موضع آخر فى الإنجيل نجد أن سامريا امتُدح لعطفه على أحد الغرباء. هذا لا يتعارض مع إنجيل يوحنا، لأنه على الرغم من أن أعظم فضيلة هى أن تساعد شخصاً لا تعرفه، فإن أعظم حب هو حبك لشخص تعرفه.

على الرغم من ذلك فإن اختلاف هذا مع قصة السامرى يعد موحياً، فقوة الحكاية الرمزية تكمن فى أنها تقوض التفكير المذهبى أو الطائفى المحدود الذى يشعل الصراع بين الشعوب. هذا بالفعل إحدى أكثر رسائل يوحنا تطورية. فهو يتحدث عن الكونية التى تجتهد فيها أن تحب جيراننا كأنفسنا، وليس فقط المرتبطين بك عائلياً أو ثقافياً أو دينياً.

يتناقض مع ذلك رسالة امتداح حب الأصدقاء على أساس أنه أعظم حب حتى وإن لم يتعارض معها بصورة واضحة. مقولة "أصدقائى سواء أخطأوا



أو أصابوا" هي تستحق الشجب مثل "بلدي سواء أخطأت أو أصابت" و"أهلي سواء أخطأوا أو أصابوا". ينبغي عليك أن تقدم حياتك لأصدقائك وبلدك أو أهلك لو كان ذلك من أجل هدف نبيل، فصلة القربى وحدها لا تكفي. فمن يقدمون حياتهم لحماية أصدقائهم من الانتحاريين على سبيل المثال، يلومهم المسيح ولا يمدحهم.

النتيجة هنا لا مفر منها: لو أن يوحنا شاهد صادق، فإما أن يكون أعظم حب في غير محله أحياناً أو أن يكون المسيح كان مخطئاً.

قارن

- الصديق وقت الضيق. (منتصف القرن الحادي عشر)
- الإنسان يا سيدي يجب أن يخضع صداقاته للإصلاح بصورة مستمرة. صمويل چونسون Samuel Johnson (١٧٠٩-٨٤).
- الشهادة... هي الطريقة الوحيدة التي ينال من خلالها الإنسان الشهرة دون قُدرة. چورج برنارد شو George Bernard Shaw (١٨٥٦-١٩٥٠).



٢٧- Que, Serà, sera.(*)

Whatever will be, will be

ما سيحدث سيحدث

راى إيڤانز Ray Evans (1915-2007)

فى عام ١٩٥٦ غنت دوريس داى Doris Day أغنية أصبح مطلعها أحد أكثر الأقوال شهرة فى اللغة الإنجليزية على الرغم من أنها بالإسبانية لا تعنى شيئًا. إنها ليست العبارة الإنجليزية الوحيدة ذات الأصل الإسبانى التى انتقص من قدرها، ومع ذلك وكما نقول: نحن لا مشكلة No Problem.

قد تكون الصياغة من اختراع فى القرن العشرين، ولكن العاطفة الأساسية تتكرر دائمًا وفى كل ثقافة تقريبًا. هناك على الرغم من ذلك تغير فى كيفية التعبير عنها وفهمها، وهو ما يظهر فى الصيغة الإنجليزية فى القرن الرابع عشر "ما يجب أن يكون، لابد أن يكون".

والفرق بين الصيغتين مهم، إذا قلت "ما يجب أن يكون، لابد أن يكون" فمن المعقول أن نسأل ماذا يجب أن يكون وماذا يمكن أن يختلف عنه. وإذا قلت "ما سيحدث، سيحدث" فهى إذًا صحيحة من خلال ظاهرها، ولكنها لا تخبرنا كيف أن ما سيحدث سيحدث بالفعل. هل هو حتمى أم أن بمقدورنا فعل أى شىء لتغييره؟

(*) أغنية شهيرة كتبها جاى ليفنجستون وراى إيڤانز عام ١٩٥٦ Jay Livingstone & Ray Evans (المترجمة).



عملياً، الصياغة تقدم فرقًا ضئيلا لأن كل صيغة من هذه العبارة تتجه لأن تكون تعبيراً عن الاستسلام. ولكن هل هناك تبرير لمثل هذه القدرية؟

هناك مجادلات فلسفية تقودنا لرؤية حتمية للعالم عندما يكون هناك مستقبل واحد ممكن، ولكن ذلك يخلق فرقًا لا يكاد يذكر فى كيف نعيش حياتنا فى مثل هذا الكون؟ ما نقرره ونفعله، لا يزال يتسبب فى حدوث أشياء، حيث على مستوى عميق بعينه، فقط، تكون تلك الاختيارات والأفعال حتمية.

وتقول القدرية الصارمة إن ما سيحدث سيحدث بغض النظر عما نفعل. ولكن هذا يبدو خطأ تاماً. لا توجد قوى خارجية تغير مسار الطبيعة، للتأكيد على أن المحصلة هى مجموعة واحدة فقط من النتائج هى التى تحدث.

الوقت الوحيد الذى يكون من المفيد فيه قبول أن المستقبل ثابت هو عندما يكون لدينا سلسلة من الأحداث متقدمة جداً لدرجة لا نستطيع تغييرها. عندما يكون كل ما يمكن عمله قد تم بالفعل فإن ما سيحدث سيحدث. ولكن حتى تلك اللحظة قد لا يكون المستقبل أمامنا لنراه، ولكنه قد يكون أمامنا لكى نغيره.

قــارن

- من ولد ليكون بغلا، سينزل له لجامه من السماء. (مثل إسبانى)
- ما لم يحدث يمكن أن يتحقق. (مثل ألمانى)
- لكل رصاصة هدفها. وليم الثالث William III (١٦٥٠-١٧٠٢).



٢٨- كلما تغيرت الأشياء بقيت كما هى

ألفونس كار Alphonse Karr (١٨٠٨-١٨٩٠)

غالبًا ما يستخدم الناس الصيغة المختصرة من العبارة الفرنسية Plus ça change, plus c'est la meme chose، كلما تغيرت الأشياء، بقيت كما هى، وصيغة العهد القديم المختلفة فى القرن السادس عشر "لا جديد تحت الشمس" باعتبارهما متماثلتين أى يمكن استخدام أحدهما مكان الآخر وبنفس المعنى. ولكن انظر إلى كلتيهما على حدة وسيظهر لك اختلاف دقيق لكنه مهم. وفى هذه الحالة نجد أن الكاتب الفرنسى ألفونس كار ينتصر لمقولة العهد القديم. القول بأنه لا أخبار جديدة صحيح جزئيًا فقط.

فى الآيات الافتتاحية من العهد القديم كانت الفكرة الأساسية هى الغرور أو الخيلاء، والمراد هو تذكيرنا بأننا نترك العالم مع أعمالنا كما هى. "جيل يذهب ويأتى جيل آخر من بعده: ولكن الأرض تبقى للأبد".

تتكرر الفكرة نفسها فى قصيدة شيلى أوزيمانديار Ozymandias(*) حيث يقابل مسافر بقايا تمثال، وقد كتب على قاعدته التمثال "اسمى أوزيمانديار(**)، ملك الملوك، انظر لأعمالى، ولن نستطيع، مهما أوتيت من قوة، أن تأتى بمثلها، فما لك إلا اليأس".

(*) يُعتقد أن هذا الاسم يعود إلى رمسيس الثانى. (المترجمة)

(**) من أشهر قصائد الشاعر الإنجليزى الرومانسى شيللى التى تناقش فكرة الانهيار الحتمى التام لكل الطغاة مهما بلغت قوتهم. (المترجمة)



الرسالة الأساسية هنا هى أن البشر يأتون ويذهبون، بينما هناك أشياء أعظم منا مثل الزمن والأرض تبقى دون أن تتأثر بوجودنا المؤقت.

فى العهد القديم فكرة أنه لا يوجد جديد، ضرب من المبالغة الشعرية لفكرة أن كل ما كان وسيكون هو بالفعل فى أفق عين الأبدية.

"كلما تغيرت الأشياء"، من ناحية أخرى، هى فى الواقع فكرة تعبر عن التغير من وجهة النظر البشرية. الفكرة الرئيسية هنا أنه ليس من العجرفة أن نظن أننا يمكن أن نترك علامة فى الكون، ولكن أن المستمر فى الثقافة أكثر جوهرية من المتغير. ليس رثاء بسيطًا أن الأشياء لا تتغير، ولكنه تعبير عن استمرارية التغيير. نحتاج إلى جزئى العبارة معًا "كلما تغيرت الأشياء، استمرت كما هى". لنصل إلى المعنى الحقيقى. فهناك مع كل ذلك أشياء جديدة تحت الشمس. الحقائق الأساسية عن الطبيعة البشرية والثقافة فقط ليست من بينها.

قارن

- الفهد لا يغير جلده الأرقط. (منتصف القرن السادس عشر)
- نفس الكلب ولكن بطوق مختلف. (مثل إسبانى)
- لا شىء دائم ماعدا التغيير. هيراقليطس Heraclitus (C. 535-475 BCE).



٢٩- ثلاثة أنواع من الكذب:
الكذب، والكذب الملعون، والإحصائيات

منسوب إلى بنيامين ديزرائيلى Benjamin Disraeli (1804-81)

مع التسليم بأن الثقة مهمة جداً فى السياسة، من الغريب أن كل الأحزاب تدعم موقفها بالحقائق والأرقام التى يثقون بها. يتشكك الناس فى الإحصائيات وذلك لأن الأرقام تستخدم من قبل كل جانب للوصول إلى نتائج مختلفة. يشير جانب إلى أعداد الأطفال المتسربين من التعليم الابتدائى ولا يعرفون أن يكتبوا جيداً، بينما نجد أنصار الجانب الآخر ينفخون فى أبواق معلنين عن مستويات القراءة والكتابة المرتفعة، وتشير المعارضة إلى معدلات الجريمة المرتفعة وتدعى الحكومة الإقلال منها، ويشكو الناس من قوائم الانتظار فى المستشفيات، بينما يقول آخرون إنها أقصر من ذى قبل.

ولكن لعلماء الإحصاء كل الحق فى استيائهم من طرح ديزرائيلى المدمر لثمار عملهم. الإحصائيات التى تكذب هى الخطأ فقط مما يجعلها لا تختلف عن أى نوع من الحقيقة المزعومة. الإحصائيات التنافسية التى يستشهد بها السياسيون عادة ما تكون حقيقية ولا تناقض بعضها بعضاً. مثار الجدل هو المعنى المراد من وراء استخدام الأرقام.

لكى نفهم جيداً ما تعنيه الإحصائيات يجب أن ننظر إلى ما هو أبعد من العناوين، ننظر إلى كيفية جمعها والمراد قياسه بالضبط. لو أردنا أن نوفر على أنفسنا هذا العناء، لكان خطؤنا أن ندع السياسيين يخدعوننا، حيث من الواضح أنهم يختارون الأرقام التى تقوى من موقفهم ويقدمونها فى إطار يخدم مصالحهم. المشكلة ليست فى كون الأرقام غير صحيحة، وإنما فى استخدامها وتطويعها لتدعيم مواقفهم.



فكرة أنك يمكنــك أن تثبت أى شىء بواسـطة الإحـصـائيـات فكرة خـاطـئـة. الأكاذيب التى تحيط بالإحصائيات توجد فيما يدعيه الناس كدلالات لتلك الإحصائيات، وليس فى الأرقام فى حد ذاتها. لا تلوم علماء الإحصاء عندما تنخدع بالغلاف البراق الذى يغلف النتائج.

قــارن

- يمكنك أن تثبت أى شىء بواسطة الأرقام. تومـاس كـارليل **Thomas Carlyle** (١٧٩٥-١٨٨١).
- إذا أردت أن توحى بالثقة، استخدم الكثير من الإحصاءات. لويس كـارول **Lewis Carrol** (١٨٣٢-١٨٩٨).
- إنه يستخدم الإحصائيات مثلما يستخدم الرجل الذى يشرب الخمر عامود النور - ليعينه على الوقوف، وليس على الرؤية. هربرت أسكويت **Herbert Asquith** (١٨٥٢-١٩٢٨)



٣٠- سيتضح كل شىء مع الوقت

(منتصف القرن السادس عشر)

عندما سئل عن رأيه فى الثورة الفرنسية وبعد مرور ١٦٠ عامًا، أجاب رئيس الوزراء الصينى الشيوعى شو إن لاى **Zhou En Lai** إجابته الشهيرة "مبكر جداً أن نقول". إنه مَثل متطرف لفكرة معروفة: حقيقة الأشياء تأخذ وقتًا كى تتضح أو أنها تظهر ببطء.

يقدم هذا المثل نصيحة بعدم التعجل، فمن المناسب عدم التعجل للوصول لنتائج حول المعنى الدقيق لهذا المثل. هناك على الأقل طريقتان لفهمه بطريقة خاطئة.

أحدهما هو المقدم فى المثل الإيطالى **Se son Rose, fioriranno**، والذى يعنى "لو أن هناك وردًا، فسيزهر". ولكن حتى النباتات ذات القدرة على الاحتمال مثل الورد لن تزهر فى حال إهمالها. وغالبًا، نحتاج إلى ما هو أكثر من الوقت إذا كان لأى شىء أن يُظهر كل إمكاناته. لو أردت أن تكون موسيقيًا عظيمًا، على سبيل المثال، فالوقت لا فائدة ترجى من ورائه إذا قررت ألا تهتم بالتمرين. يحتاج هذا المثل أن يتطهر من أى تنويعات قدرية إذا كان له أن يُفهم بصورة صحيحة.

تشير أنواع أخرى من الورد إلى الطريقة الأخرى الخاطئة لفهم هذا المثل. غالبًا ما نظن أننا نستطيع أن نحكم على شىء فى ماضينا القريب سواء كان جيدًا أو سيئًا بعد مرور وقت كاف يُباعد بيننا وبينه. مرة أخرى قد يكون ذلك صحيحًا لو كنا حذرين بما فيه الكفاية، ونخلع نظارات الشمس الوردية. يوضح الوقت الأمور، ولكنه يعالج أيضًا،



وهو يقوم بذلك عن طريق مساعدتنا على النسيان. تتفق التجربة اليومية مع البحث السيكولوچى أننا سيئون فيما يتعلق بتذكر الماضى دون تحيز، ونميل إلى أن نصنع قصصًا تناسبنا. قد يُكتب التاريخ بواسطة الفائزين، ولكن حتى الخاسرين يجدون سبلا لجعل هزائمهم أقل ازدراء.

عندما ننظر خلفنا ونسأل ما إذا كان ما فعلناه صحيحًا، فإن وصولنا إلى إجابة وإن كانت إشكالية، يساعدنا على التصالح والتواؤم مع ما حدث، ولكن هذا الوضوح يتأتى من الإدراك المتأخر أكثر من أن يكشفه الوقت، حيث إنه فى بعض الأحيان يشوش على ما حدث أكثر من الإمساك بما حدث فعلا.

قارن

- الزمن هو الشافى العظيم. (أواخر القرن الرابع عشر)
- من يعش سيرى. (مثل إسبانى)
- الإدراك المتأخر دائمًا ٢٠/٢٠. بيلى ويلدر **Billy Wilder** (١٩٠٦-٢٠٠٢).



٣١- ما الدنيا إلا مسرح كبير

(وليم شكسبير William Shakespeare ١٥٦٤-١٦١٦)

يعتبر المسرح مصدرًا للعديد من المحسنات البديعية الخصبة للحياة الإنسانية. وأضاف كارل ماركس لملاحظة هيجيل عن أن التاريخ يعيد نفسه قائلا "أنه يقوم بذلك، فى المرة الأولى كمأساة وفى الثانية كملهاة. ووصف هوراس والپول Horace Walpole العالم بأنه "كوميديا لمن يفكر، ومأساة لمن يشعر". أما عالم الاجتماع إرڤنج جوفمان Irving Goffman، فقد أخرج مكنونات هذه الاستعارة فى كتاب يضم عمله المبتكر "عرض للنفس فى الحياة اليومية"، ويصف حدود المجال الذى نلعب فيه أدوارًا بصورة روتينية.

الكثيرون يعملون لشيء يشبه النتيجة نفسها فى لحظات معينة من حياتهم، عندما يكون الفرق بين ما يشعرون به عن حقيقتهم وما يجب أن يكونوا عليه بصفة منتظمة كبيرًا جدًا . هناك شيء قوى شبه حقيقى فى صورة وضعنا قناع على وجهنا كى نذهب إلى العمل، ونندمج اجتماعيًا أو حتى للقيام بالدور الذى تتوقعه منك عائلتك.

ولكن تلك الأساليب فى التفكير على أية حال، تفترض سلفًا أن هناك فرقًا بين الشخصية واللاعب. ولكن ماذا لو أن الدنيا مسرح؟ لو كنا دائمًا نقوم بدور ما، ألن نتمثل هذا الدور الذى نقوم به؟ القناع الذى لا يوجد شيء وراءه أو لا يخلع مطلقًا ليس قناعًا ولكنه وجه.

عندما يناجى چاك نفسه فى الفصل الثانى من مسرحية " كما تهوى" فكرة أن "كل الرجال والنساء" هم "لاعبون" لا تُقدم لتعنى أننا نعيش، ونحن نخفى طبيعتنا الحقيقية.



على العكس، الأعمار السبعة للإنسان التى تكون "أدوار أو فصول" الحياة تصف كيف نكون فى كل مرحلة وليس كيف نبدو.

يعد ذلك قريبًا من معنى لعب الأدوار الذى وصفه جوفمان Goffman. كذلك يعد تسطيحًا للأمور أن نفكر أن نحيا حياتنا، ونحن نتظاهر بأن نكون أشخاصًا آخرين. عندما يكون التمثيل هو القاعدة، حينها لا يعد تمثيلا بالمرة؛ لذا يجب أن نختار أدوارنا بحرص، لأننا عندما نتعايش معها بعمق، نصبح الشخصيات التى نلعبها.

قـارن

- نرى الوجوه، ولكن لا نعرف ما بالقلوب. (مثل إسبانى)
- لا توجد أدوار ثانية للأمريكيين. (سكوت فيتزجيرالد F. Scott Filzended)
- الحياة ملهى ليلى. فريد إيب Fred Ebb (١٩٢٣-٢٠٠٤)



٣٢- تنبت أشجار البلوط الضخمة من بذور صغيرة

(أواخر القرن الرابع عشر)

قد يؤدى تقدم العلم إلى تراجع الحكمة الشعبية، وقد تتحول الصور البلاغية إلى قوانين شبه علمية لا يبقى فيها العلم ولا البصيرة على قيد الحياة.

خذ مثال أشجار البلوط والبذور الصغيرة. إنه قول جيد ما دمت تتذكر أن لكل شجرة بلوط آلاف البذور الصغيرة التى تتعفن وتموت. على الرغم من ذلك، هناك أسلوب جديد يجعلنا نقول إن الأسباب الصغيرة يمكن أن تؤدى إلى نتائج كبيرة: رفرفة جناحى فراشة يمكن أن تتسبب فى إعصار فى الجانب الآخر من العالم.

تأثير الفراشة هو أكثر جوانب نظرية الفوضى شهرة، وهو الجانب الذى يصف كيف أن تغيرات بسيطة جداً فى الظروف الأولية يمكن أن تؤدى إلى اختلافات كبيرة فى النتائج النهائية؛ ولكن على الرغم من نقاط التشابه السطحية، فإن ذلك مختلف تماماً عن الحقائق المتمثلة فى مثل البذور الصغيرة وأشجار البلوط. بينما نمو الأشجار من البذور عملية متكررة ومتوقعة إلا أن تأثير الفراشة رغم رهافتها لا يمكن التنبؤ به أو التحكم فيه.

يمكن الوقوف على الفرق فى غموض عبارة "لا يمكن أن تعرف". فى بعض السباقات قد يعنى "لماذا لا نحاول؟"، "قد تنجح وقد لا تنجح"، "لن تعرف قبل أن تحاول وتجرب". هذه هى "لا يمكن أن تعرف" بالنسبة للبذور الصغيرة. وفى المقابل "لا يمكن أن تعرف" بالنسبة للفراشة هى أنك لا تعرف التبعات غير المتوقعة لأفعالك.



فهل يعنى ذلك أن البذور الصغيرة تحفز بينما الفراشة تثبط؟ وحيث إنك لا تعرف ما قد يحدث، فهل يعنى ذلك أن تكف عن محاولة التحكم فى المستقبل؟ ليس بأى حال من الأحوال. لا يوجد شىء فى نظرية الفوضى يخبرنا بأن وجود آثار بعيدة غير متوقعة سبب لكى لا نقوم بأشياء لها آثار متوقعة آتية. تشغيل غلاية الشاى قد يتسبب فى عاصفة تبعد مئات الأميال، ولكن من المحتمل ألا يحدث ذلك، ومن المؤكد أنها ستغلى الماء بداخلها. عندما يتعلق الأمر بالحياة العادية، فإن أشجار البلوط والبذور تكون أكثر تنويراً من الفراشات والأعاصير.

قارن

- يتطلب الأمر فى الغالب قوة صغيرة لتحريك جماهير غفيرة. (مثل أيسلندى)
- للشوكة وخز حتى وإن كانت صغيرة. (مثل يونانى)
- قطرة قطرة، ويكون بحر. (مثل بولندى)



٣٣- الشىء الوحيد المؤكد هو أنه لا يوجد شىء مؤكد

(بلينى الكبير Pliny the Elder (٢٣-٧٩)

أطلق الاقتصادى جالبريث J. K. Galbraith على العشرين سنة الأخيرة "عصر الشك". ثورات العالم الاجتماعية والفكرية مثل الثورة الصناعية، وأفكار ماركس وداروين وفرويد هزت افتراضات قديمة. يعتبر الكثيرون هذا العصر مثيرًا للاضطراب، وبالنسبة لآخرين أصبح تأكيد الشك نوعًا من الراحة. ما الداعى للقلق كى نضع الأمور فى نصابها الصحيح فى الوقت الذى لا يوجد لدينا مقياس مؤكد لما هو صواب أو خطأ فى المقام الأول؟ لم لا نعود أدراجنا لتعددية الآراء المختلفة غير الموضوعية ونعتبرها كلها مشروعة؟

يشير بلينى نحو الطريق لبعض الإجابات، فقد جاء تعليقه على موضوع اليقين فى سياق فصل عن الله فى كتابة "التاريخ الطبيعى". "أعتبره... إشارة على الضعف الإنسانى أن نتساءل بشأن شكل الله وهيئته". فى هذه الموضوعات كان يرى أنه لا يوجد شىء مؤكد. فى أمور إمبيريقية عديدة أخرى، لم تكن آراؤه بهذا التحفظ. على سبيل المثال، كتب عن السلحفاة، قشور سطح صدفة ظهر السلحفاة عندما تقدم فى شراب يمكن أن يكون لها تأثير مثبط للرغبة الجنسية، والأمر الأكثر إثارة للدهشة ينبع من حقيقة أن المسحوق المعد من الصدفة التى تغطى ظهر السلحفاة من المعروف أنه يثير الرغبة الجنسية[٣].

(3) The Natural History, Pliny the Elder, ed. John Bostock (www.perseus.tufts.edu).



حتى لو قبلنا بالادعاء الأكثر تطرفًا بأنه لا شيء مؤكدًا على الإطلاق، فمن الممكن أن نقوم بما هو أفضل من الاختلاف دون مبالاة. عندما يتعلق الأمر بالله، على سبيل المثال، فإن ما نعتقد أنه حقيقي يصنع فرقًا في أسلوب حياتنا. لو لم نستطع الوصول إلى اليقين، فيجب أن نقرر أساس ميزان الاحتمالية. كذلك لا يحتاج هذا الميزان لأن يكون دقيقًا: يمكن أن نعتقد أنه من المحتمل جدًا أن يكون الله موجودًا أو غير موجود دون أن نكون على يقين تام بذلك.

في أمور أخرى عديدة، غياب اليقين يكون أمرًا فنيًا ولكن بدرجة ضئيلة، حقيقة أن الغذاء الجيد ليس من المؤكد أن يجعلك صحيح البدن، والقفز من على سطح بناء عالٍ لن يودي بحياتك حتمًا، ليست أسبابًا تجعلنا نتبع حمية غذائية معينة أو تجعلنا نتشكك في القفز. كل المعتقدات غير مؤكدة ولكن البعض منها مشكوك فيه أكثر من غيره.

قارن

- لا شيء مؤكدًا ما عدا الموت والضرائب. (أوائل القرن الثامن عشر)
- لا شيء مؤكدًا سوى المجهول. (أواخر القرن التاسع عشر)
- لا أعرف شيئًا سوى حقيقة جهلي. (سقراط Socrates (C470 - 399BCE))



٣٤- الألفة الزائدة تولد الازدراء

(أواخر القرن الرابع عشر)

فكرة أن الألفة الزائدة تولد الازدراء مثال غريب على قول يكرره الناس أكثر من اعتقادهم فيه، فقد أظهرت الدراسات أن الناس فى الواقع يميلون للاعتقاد بأنهم كلما تعرفوا على أشخاص عن قرب تكون احتمالية حبهم لهؤلاء الأشخاص أكبر. وعلى الرغم من ذلك، فإن العمل الحديث الذى قاده مايكل آى نورتون **Michael I.Norton** فى كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفار يرى أننا، فى هذا المقام، نكون متفائلين بدرجة ميئوس منها: كلما اقتربنا من الناس أكثر يكون احتمال الوقوف ضدهم أكبر"[٤].

يتركز تفسير نورتون لذلك على تأثير الغموض عندما لا نعرف الكثير عن الآخرين، فمن السهل علينا أن نملأ الفراغات مما يجعلنا نتقبلهم. عمليًا، يعنى هذا عادة التفكير فى أنهم يشبهوننا، فنميل إلى الاعتقاد بأنهم يشتركون معنا فى أذواقنا وروح الدعابة، ورؤيتنا للعالم، ولكن ذلك يكون لأنهم يبدون لطفاء، كما أننا لا نملك الدليل على أنهم لا يشتركون معنا فى تلك الأشياء، ولكن كلما عرفنا معلومات أكثر عنهم، تكون احتمالية أن نتعثر فى شىء لا نحبه أكبر، ولذا اتجه الناس إلى أن يقيموا الغرباء بشكل أعلى عندما تقدم لهم قائمة قصيرة بمواصفات الشخصية أكثر من القائمة الطويلة. وهذا أيضًا يفسر لماذا يكون الواقع محبطًا دائمًا عندما يتقابل الناس من خلال مواقع الارتباط العاطفى.

---

(4) 'Less is more: The lure of ambiguity, or why familiarity breeds contempt', Michael I. Norton, Jeana H. Frost and Dan Ariely, Journal of Personality and Social Psychology, Vol. 92(1), Jan. 2007, 97-105.



ولكن الأبحـاث توضح أكـثـر مما تسـوغ القـول المأثور، فـالألفـة الزائدة لا تـولد الازدراء بواسطة قانون صارم من العائدات المتناقصة. المشكلة ليست فى الألفة الزائدة فى حد ذاتها، ولكنها فى الاحتمالية المرتفعة لاكتشاف صفات غير محببة. لو لم تكن هذه السلبيات مؤثرة، أو لو أن هناك العديد من الإيجابيات غير المعروفة، فلا معنى لمعرفة شخص ما أو شىء ما على نحو أفضل إذا كان ذلك سيتسبب فى كراهيتنا له بعد ذلك.

لذا لا يجب أن نرتاب من الاقتراب من أشخاص أو أشياء نحبها بحق، وما دام ليس لدينا رؤية مثالية لهم ونتوقع أن نجد عيوبًا، فالازدراء الذى ينجم عن الألفة الزائدة ليس حتميًا بالضرورة؛ ولو كان الأمر كذلك، لما تمكن مارك توين Mark Twain من السخرية قائلا "الألفة الزائدة تولد الازدراء - والأطفال".

قـارن

- الغياب يجعل القلب أكثر اشتياقًا. (منتصف القرن التاسع عشر)
- الغياب يؤدى للنسيان. (مثل إسبانى)
- أن نكون بعيدين وأحباء أفضل من أن نكون قريبين ودائمى الشجار. (مثل يونانى)



٣٥- الثبات الأحمق على الرأى بعبع العقول الصغيرة

(رالف والدو إيمرسون Ralph Waldo Emerson (1803-82))

بعد السنين التى أمضيتها فى الكتابة والتحدث عن الفلسفة وصلت إلى قناعة بأن الثبات العقلانى على الرأى لا يلقى تقديراً من عامة الناس. ولكن هناك الكثير ممن يبغضون النفاق، الذى يعد فى حد ذاته شكلا من أشكال عدم الاتساق مع الذات. قد يصدمك هذا الرأى لكونه غير متسق فى حد ذاته؛ لكن حيث إن هذا الثبات على الرأى أو الاتساق مع الذات لا يلقى تقديراً بشكل واسع، فلك ألا تهتم.

الثبات على الرأى، ببساطة، أمر يتعلق بتجنب الحفاظ على أمر ما، بينما تحافظ فى الوقت نفسه على شىء أو تقوم بشىء يتعارض معه. على سبيل المثال، سوف تُتهم بعدم الاتساق مع الذات حين تقول إنك لست متعصبًا لجنس دون آخر فى بعض المناسبات، ولكنك تتحدث وتتصرف بطريقة توحى بهذا التعصب مع البعض.

ولنقلها بهذه الطريقة، قد يكون واضحًا أن الثبات على المبدأ أمر جيد، فلم التشكك إذاً؟

أحد الأسباب هو أن الناس تسىء فهم معناه؛ فأنت لست مذبذبًا، على سبيل المثال، حين تشعر بأنك تريد أن تأكل السوشى فى يوم ما وبرجر فى اليوم التالى. الثبات على المبدأ ليس أن تقوم بالشىء نفسه بغض النظر عن السياق. كما أنه لا يعنى الرفض القاطع لكى تغير مواقفك. يبدو أن الناس يربطون بين الثبات على الرأى وعدم المرونة والدوجماطيقية، بينما إدراك المرء فى الواقع أنه غير رأيه يكون عادة دافعًا له لتغيير ما يعتقده أو يفعله.



على الرغم من ذلك قد يكون فى العداء للثبات على الرأى تحفظ معقول: لم يتحدث إيمرسون ضد الثبات على الرأى على إطلاقه، وإنما "الثبات الأحمق على الرأى"، والذى قال عنه إنه "بعبع العقول الصغيرة". لا نستطيع أن نكون دائمًا ثابتين على آرائنا، لأن الأمور غالبًا ما تكون غامضة أو غير معلومة. الإصرار على إيضاح ما هو غير واضح فى المقام الأول يعد حماقة غير متعقلة. فى تلك المواقف تكون الآراء غير المتسقة معبرة بحق عن الحقائق المعروفة أكثر من تلك المتسقة والثابتة.

حتى إذا كان الثبات على المبدأ فضيلة، فهناك بالتأكيد رذائل أسوأ من عدم الاتساق أو عدم الثبات على المبدأ فى أمور نظرية بحتة، وكما عبر عن ذلك جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau "أفضل أن أكون رجلا ذا تناقضات من أن أكون رجلا ذا تحيزات".

قارن

- لا يوجد طيور فى عش السنة الماضية. (أوائل القرن السابع عشر)
- من دلائل العقل المدرب ألا يقبل تأكيداً أكثر مما يتيحه الأمر. (أرسطو (Aristotle (384 - 22BCE)
- هل أناقض نفسي؟ حسنًا إذًا أنا أناقض نفسى. (أنا رحب، وبى تعددية وفيرة.) (والت ويتمان (Walt Whitman (1819-92).



٣٦- الحياة ليست بروفة نهائية

(روز تريمين[٥] (Rose Tremain (- 1943)

من السهولة أن نقول عن الأشياء ما ليس فيها. الحياة ليست حوض زهور، الله ليس رجلا كبيراً يجلس على سحابة، الفوز ليس كل شيء. بعض صيغ النفى، مع ذلك، تكون معبرة أكثر من غيره. التفكير فى سبب عدم كون البيضة فيلا لن يقودك إلى شيء، بينما قد يفعل ذلك التفكير فى أن الحياة ليست بروفة نهائية. هذا تذكير بأن الحياة ليست صفقة المرة الواحدة، وإذا أخفقت هناك محاولة أخرى.

ولكنك تحتاج لتوسيع حدود الاستعارة بعيداً لو أنك تريد أن تتدبر ما عليك أن تقوم به حيال ذلك. فلو لم تكن الحياة بروفة نهائية، هل هى العرض الرئيسى أم أنها مجرد تجربة أداء؟ هناك ضرورة ملحة فى الحالتين، ولكنها ليست من النوع نفسه.

المشكلة مع تشبيه تجربة الأداء أنه لا أحد يعرف المقياس الذى على أساسه يتم اختيار الممثلين أو حتى طبيعة العرض. فى الواقع، يبدو الأمر وكأنه لا يوجد مخرج على الإطلاق، وكلما حاولنا أن نظهر فى دائرة الضوء، قلت قدرتنا على رؤية أن المقاعد الأمامية المظلمة شاغرة.

تلمح فكرة تجربة الأداء إلى الحاجة إلى ترك انطباع قوى لدى شخص ما، ولكن إذا كانت الحياة هى العرض فقط، وما دمنا لسنا بالسوء الذى يجعلنا نسمع صيحات

---

(١) كنت أعتقد أن هذا القول أقدم من ذلك، ولكن يمكن أن ينسب إلى روز تريمين كما جاء فى صحيفة فى عددها "The Columbia world of Quototions" الصادر فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٩٨٩.



الاستهجان، فلم القلق حيال حكم الآخرين علينا؟ عندما يسدل الستار، لن نرى حجم التصفيق الذى سنناله. ولكن ما الهدف إذًا من وراء المشهد بدون مشاهدين؟

الحقيقة هى أن الحياة ليست بروفة نهائية، لأنها ليست نوعًا من العروض على الإطلاق. يجب أن نؤدى أدوارًا، ليس بالمعنى التمثيلى ولكن كفاعلين فى عالم الواقع. هذا التشبيه يضللنا بصورة مضاعفة، وذلك لأن الحياة بشكل جيد تتطلب المران. بهذا المعنى، تكون الحياة سلسلة مستمرة من البروفات، ومن تجربة أشياء مختلفة، ومن محاولة تحسين الأداء وكل ذلك فى سبيل الحياة، وليس من أجل أى عرض نهائى محدد أبدًا.

قارن

- اشعر بالسعادة وأنت على قيد الحياة، لأنك ستموت لفترة طويلة. (مثل إسكتلندى)
- الوقت يلتهم كل شيء. (أوفيد (Ovid (C. AD17 - 43 BCE)
- اجمع براعم أزهارك بينما يكون فى استطاعتك ذلك. (روبرت هريك (Robert Herrick (1674-1591)



٣٧- يأتى الغرور قبل الوقوع

(أواخر القرن الرابع عشر)

الغرور هو الخطيئة الوحيدة من بين الخطايا السبع التى يمكن استخدامها اليوم على نحو إيجابى وبدون أى قيد، وتبقى الشراهة والكسل والحقد رذائل لا تقبل الجدل، بينما يقبل الغيظ أو الغضب الشديد فقط فى أوقات الاستفزاز الشديد. أما الاشتهاء الجنسى فهو مرحب به على نطاق واسع، ولكن لا تزال مسحة من الحظر أو المنع عالقة به، بينما أحاسيس مثل "الجشع أمر جيد" ما زالت تنطوى على تناقض.

يمكن أن يكون الغرور على الرغم من ذلك أمرًا جيدًا. الآباء يفخرون بأبنائهم، فقد غنى چيمس براون James Brown "أنا أسود وأنا فخور"، حتى شركة خطوط الطيران المتحدة "تفخر بأنها تقدم قهوة ستاربكس". والحقيقة أن ميشيل أوباما Micheale Obama عندما قالت فى أثناء حملة الدعاية الانتخابية لزوجها إنها كانت تشعر لأول مرة بأنها فخورة لكونها أمريكية، وجه إليها النقد على تلكؤها.

ربما لأن خطيئة الغرور المذكورة فى الإنجيل هى مختلفة نوعًا ما عن التفاخر الذى نشعر به عندما نصنع قهوة جيدة. "يأتى الغرور قبل الهلاك، والروح المتعالية قبل السقوط"، عبارة فى العهد القديم وهى العبارة التى تولد منها القول الحديث. هذا النوع من الغرور يضع البشرية فوق خالقها، ولذا يسقط المتعالى لأن الله أذله وأوقع به: "كل من فى قلبه كبر يكون سوءه فى حق الله، وسيكون مصيره العقاب".

يمكن أن يكون لنا آراء مغالية عن مكانتنا حتى لو لم نؤمن بالله أو أى تسلسل هرمى طبيعى آخر. كلما اعتقدنا أن لدينا قوة أكبر أو جدارة أكثر مما هو فى الحقيقة،



يكون ذلك هو النوع الخاطئ من الغرور. الكبرياء نقيصة عملية وأخلاقية وذلك لأنها تغشى أعيننا عن مواطن ضعفنا؛ وفى المقابل، فإن التفاخر بما نقوم به يمكن أن يكون الرغبة الحميدة لبذل قصارى جهدنا وأفضل ما عندنا.

هناك رابط بين النوعين، التفاخر بالبلد والأولاد يمكن أن يتخذ كلا الشكلين. لو رأينا إنجازات أولادنا على أنها امتداد لإنجازاتنا نحن، أو اعتقدنا أننا أرفع منزلة من غيرنا بسبب جنسيتنا، فالفخر الذى نشعر به هنا يتجاوز ما لدينا من جدارة واستحقاق. أما إذا كان ذلك يؤدى أو لا يؤدى إلى تعثرنا فيكفى أن الغرور يأتى مع الحماقة.

قارن

- العجرفة تحط من قدر صاحبها والتواضع يعلى من شأن صاحبه. (مثل إيطالى)
- الجيش المتغطرس سيخسر المعركة بكل تأكيد. (مثل صينى)
- التواضع أرفع أشكال الغطرسة. (مثل ألمانى)



٣٨- من يعط القليل وهو مبتسم يعط أكثر ممن يعطى الكثير وهو عابس

(مثل يهودى)

من هو فاعل الخير العظيم؟ هل هو وارن بفيت Warren Buffett الذى وهب أكثر من ٣٠ مليار دولار لأعمال الخير؟ هل هو بيل جيتس Bill Gatesالذى تبرع بمبلغ ٢٨ مليار دولار؟ أم هى السيدة أوليف چونز Mrs. Olive Jones من مدينة پونتى پريد Ponty Pridd (من مقاطعة ويلز Wales) التى وضعت آخر نصف جنيه تمتلكه فى صندوق للصدقة فى عطلة آخر الأسبوع الماضى؟

هذا يتوقف على حيثيات حكمك وسببه. لو كنت تحاول أن تقرر من الأجدر بالتقدير، فقد تميل إلى أن تتفق مع المسيح عيسى الذى قال يصف سيدة من الشرق الأوسط فعلت مثلما فعلت السيدة چونز بأنها "أعطت أكثر من أى شخص آخر": لقد أعطوا جزءًا يسيرًا من ثرواتهم، ولكنها رغم فقرها المدقع أعطت كل ما لديها".

لو، على الجانب الآخر، كنت تنظر إلى تلك الفكرة من وجهة نظر المريض والفقير والجائع فالأفضل بالنسبة لهم أن يأخذوا القروش القليلة ممن فى مثل حالهم، وليس المليارات من أشخاص مثل بفيت وجيتس، الأمر الذى يدفع بفعل الخير مرة أخرى إلى المقدمة؛ وهذا يركز على فضيلة المتبرع، وليس على خير وسعادة المستفيد منه.

حقًا، عندما تعطى مالا، مباشرة، لشخص محتاج، المهم هنا هو كيف تتواصل معه. قد يكون أسوأ فعلا بالنسبة لشحاذ أن يلقى له بالجنيهات بطريقة فيها نبذ وتعال من أن يعطى قروشًا ولكن بعطف. عندما تكون منبوذًا من المجتمع، فإنك تعول كثيرًا على أن تُعامَل باحترام. قد لا تقدر الكرامة بثمن، ولكن ينبغى ألا تباع بثمن بخس.



ولكن تلك الروح لا تنعكس على عالم العطاء مجهول المصدر. التفكير فى أن دوافعك ومواقفك لها الأهمية الأولى، يعنى تبنى وجهة نظر نرجسية غريبة تجاه فعل الخير. الناس تموت وتعيش فى ظروف سيئة، لأن الأغنياء نسبيًا لا يقدرون الاستغناء عن المال، فهم يحتاجون لمساعدتنا ولا يكترثون ما إذا كُنت تعطى وأنت مبتسم أم متعال، ليعجب بك أصدقاؤك أم من منطلق شفقة بحت. إنهم يحتاجون أن نعطيهم فحسب.

قــارن

- يعطى مرتين من يعطى سريعًا. (منتصف القرن السادس عشر)
- أعطنى خبزًا وسمنى غبيًا. (مثل إسبانى)
- يحب الله المحسن المبتهج. القديس پول، (الإنجيل ٧:٩ St. Paul II Corinthians 9:7)



٣٩- لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب

منتصف القرن السابع عشر

لو أن البكاء على اللبن المسكوب لا يجدى، ولو أن البكاء على اللبن غير المسكوب يعد أمرًا شاذًا، فهل هذا يعنى أنه لا طائل يُرجى من وراء البكاء على الإطلاق؟ هذا فى حالة أن تكون تلك الاستعارة خاصة بأى ضائقة أخرى. ولكن ربما كانت هناك أسباب وجيهة تجعلنا نتحدث عن اللبن المسكوب، وليس الكعكات التى سقطت أو العملات المعدنية التى فُقدت.

قد تنقض القطة على بركة صغيرة من اللبن، ولكن بالنسبة لنا نحن البشر فبما أنه قد انسكب على الأرض يكون قد فسد. لكن لو سقطت منك كعكة، أيمكن أن تأخذها مرة أخرى وتزيل ما علق عليها وتأكلها؟ اذهب واعمل فى مطعم لمدة أسبوع إذا كنت لا تصدقنى.

بل والأكثر من ذلك، إذا انسكب لبن شبه دسم فسيكون ذلك أمرًا لا يكاد يذكر. حجم الكارثة يقدر بمدى إصلاحها وما إذا كانت تستحق دموعك.

عندما تكون المأساة كبيرة لا يكون البكاء مفهومًا فحسب، ولكنه إنسانى أيضًا. لا تُعزى الأرملة التى تبكى زوجها بأن نقارنه باللبن المسكوب. ومن ناحية أخرى، عندما يمكن تصحيح ما وقع من مكروه، يكون البكاء غير ملائم، حيث إن العمل هنا يجعله غير ضرورى.

لذلك فإن استعارة اللبن المسكوب هى إحدى أكثر الاستعارات دقة، التى يمكن أن نجدها فى أى مثل، وهذا يوضح أن اللغة المجازية يمكن أن تكون أكثر دقة من اللغة



الحرفية أو اللفظية. "ما حدث لا يمكن تغييره"، مَثل أكثر مباشرة ولكنه خطأ تام، حيث إن أى شخص يحاول تجميع وتركيب مجموعة من الأثاث باتباع خطوات معينة يمكن أن يعود أدراجه، ويكرر الخطوات مرة أخرى من البداية.

حتى لو كان ذلك صحيحًا، يبقى السؤال "وماذا فى هذا؟" عندما لا يكون فى استطاعتنا تغيير الماضى، يجب علينا أن نتعامل معه. على الرغم من ذلك قد لا نستطيع أن نصلح ما أفسده الدهر، ولكننا فى بعض الأحيان نستطيع أن نُعدل أو نصحح مما حدث. وفى الأغلب يكون الندم والحزن ردود أفعال ملائمة حتى لو لم تغير إلا ما فى أنفسنا فقط. ينبغى علينا ألا نعيش فى الماضى ونجتر أحداثه للاعتراف بوجوده، وبأنه لا يزال يؤثر فى الحاضر. كل ماض أليم يهم، ولكنها أهمية ضئيلة، فى مثل أهمية المذاق اللاذع الذى يتركه اللبن المسكوب.

قارن

- الماضى ليس فى مأمن. (مثل أمريكى، أوائل القرن التاسع عشر)
- ما جدوى البكاء بعد أن أتت الطيور على المزرعة بأكملها. (مثل هندى)
- حتى الإله لا يمكن أن يغير الماضى. (أجاثون (Agathon (C448 - 400 BCE)



٤٠- حياة لا تُختَبر... لا تستحق أن تعاش

(أفلاطون (Plato (C. 427-347 BCE)

فكرة النبالة توحي بسمو فئة قليلة على كثرة وضيعة. ربّما يكون ذلك كذلك لو تلمست الكثير من المثل النبيلة يمكن أن تشتم رائحة النخبة.

يتسم مثل الحياة التى تختبر بالنبالة لهذا السبب بالتحديد. ويبدو أنه لا اعتراض عليه: تشجيع على أن يكون الإنسان إنسانًا بكل معنى الكلمِة، يستخدم أكثر ملكاته الفكرية تطورًا لرفع مستوى حياته فوق مستوى حياة البهائم. لأننا لو لم نفكر، فلن يكون هناك فرق بيننا وبين الحيوانات، فقط نأكل وننام ونعمل ونتناسل. وعلى الرغم من أنه يعد صعبًا بعض الشىء أن نقول إن هذه الحياة لا تستحق أبدًا أن تعاش، نجد أن أقلية فقط توافق على أنهم أقل قيمة ممن ينطبق عليهم وصف إنسان.

وعلى الرغم من ذلك، لن تكون هناك حاجة إلى الحث على اختبار الحياة والتمعن فيها لو لم نكن نظن أن هناك أناسًا لا يقومون بهذا الاختبار، وبالتالى فحياتهم حياة بهيمية لا قيمة لها. المثل النبيل له تبعات صعبة: فى قطيع الإنسانية، يكون البعض إما حيوانًا أو ميتًا.

ويسبب هذا التفكير الإحساس بالقشعريرة عندما نفكر فيما كان شخص مثل أفلاطون يعتبره الحياة الجديرة أن تعاش. وعلى الرغم من أن الجميع تقريبًا يتساءلون بشأن أسلوب حياتهم فى وقت ما فى حياتهم، فمن المحتمل أن تكون أقلية فقط هى التى تخضع حياتها لاختبار وتدقيق سقراط. غالبية الناس فى الماضى والحاضر كانوا



مشغولين فى كفاحهم من أجل البقاء على حساب الانخراط فى تحليلات فلسفية مطولة لمعنى حياتهم؛ لذا إذا كانت الحياة التى تختبر الإنسان أكبر من تلك التى تتطلب التحقيق والاختبار البسيط، فبطريقة ضمنية تكون جموع ضخمة من البشرية عبارة عن وحوش جاهلة لا قيمة لها.

انظر إلى الكثيرين من أولئك الذين يحتكمون إلى مثل أفلاطون، وستجد أن رسالتهم واضحة، وهى تقتضى ضمنًا أن النخبة فقط هم من لهم حياة ذات شأن جديرة بالاهتمام، بينما عامة الناس موجودة بالكاد. على الرغم من قيمة اختبار معنى الحياة، فإن جعله شرطًا ضروريًا لوجود ذى قيمة يعتبر إنكارًا لحياة الملايين من البشر.

قارن

- اعرف نفسك. (نقش على معبد أپوللو فى دلفى فى القرن السادس قبل الميلاد)
- لا أعرف نفسى ومعاذ الله أن يتوجب علىّ ذلك. جوته Johann Wolfgans Von Goethe (١٧٤٩-١٨٣٢).
- الحياة معجزة فى حد ذاتها. ميرڤن پيك Mervyn Peake (١٩١١-١٩٦٨).



٤١- المثابرة أم الحظ السعيد

(القرن السادس عشر)

القول بأن آلهة الحظ متقلبة المزاج خليط مرعب من التعصب الجنسي ومفهوم إلصاق صفات بشرية بأشياء غير بشرية. هي تكرار للأفكار نفسها، وإن كانت بكلمات مختلفة. أما فكرة إلصاق الصفات البشرية فكرة مضللة لأن الفكرة الأساسية عن الحظ هي أنه عشوائي، لا يفكر ولا نية لديه بأن يكون متقلبًا؛ ولو كان ذلك هو كل ما نعنيه، لتبقّى لدينا قول مكرر أجوف: لا شيء في الحظ إلا الحظ ذاته.

في الوقت نفسه غالبًا ما تسمع أنك تصنع حظك وخاصة في الرياضة، فعلى سبيل المثال، وقف الحظ بالطبع في صف الشجعان عندما بذل فريق مانشستر يونيتد **Manchester United** جهدًا خارقًا ضد بايرون ميونخ **Bayern Munich** لانتزاع كأس البطولة في ١٩٩٩، ولكن عندما هرب فريق وست بروموتش البيون **West Bromwich Albion** من الإقصاء من اتحاد الكرة الإنجليزي في ٢٠٠٥ كان الفضل يعود إلى نتائج جيدة في ثلاث مباريات أخرى في آخر يوم من الموسم، وبدا ادعاء المديرين بأنهم صنعوا حظهم أقل مصداقية.

فهل الحظ في نطاق تحكمنا أم تراه أبعد من ذلك؟ يمكننا أن نغير بعض الأشياء مثلما لا يمكننا أن نغير أشياء أخرى. معرفة الفرق مهمة جدًا لاجتياز عقبات الحياة. لهذا السبب يمكن حتى لغير المؤمنين أن يروا الحقيقة في كلمات رينولد نيبور الافتتاحية لصلاة السكينة: "يا إلهي امنحني السكينة كي أقبل الأشياء التي ليس في مقدوري تغييرها، وامنحني الشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها، وامنحني الحكمة لأعرف الفرق".



إدراك حدود مقدرتنا لنصنع حظنا شيء مهم وأساسى لمعرفة الفرق. فبعض الأشياء لا تعود للحظ أبداً ولكن لأعمالنا، وفى حالات أخرى مثل حالة فريق وست بروم West Brom فإن دور المثابرة هنا لا يكون لاستبعاد ما هو عشوائى، وإنما للتأكد من أنك على استعداد لأن تجنى الثمار إذا ما حالفك الحظ؛ وفى الحالتين يكون للمثابرة مردود جيد.

على الرغم من ذلك، مهما زادت المثابرة فإنها لن تغير نتائج الأحداث التى هى خارج نطاق تحكمنا. **لو أن هناك فريقين، على سبيل المثال، كلاهما يعمل بجد واجتهاد** لاستثمار أى حظ جيد قد يكون من نصيبهم، فى هذه الحالة سيكون الحظ هو الذى يقرر مصيرهم وليس الجهد. يمكن للعمل الجاد أن يخفف من آثار الحظ، ولكنه لا يمكن أن يزيلها نهائيًا.

قــارن

- لأبناء الشيطان حظ الشيطان. (أوائل القرن الثامن عشر)
- العظمة لا تذهب إلى الكلب، الكلب هو من يذهب إلى العظمة. (مثل ألمانى)
- ليس هناك طقس سيئ، لدينا فقط ملابس غير مناسبة. (مثل سويدى)



٤٢- قلة المعرفة أمر خطر

(ألكسندر بوب (Alexander Pope (1688-1744)

الإجابات الفطنة التى تجىء فى محلها دائمًا ما تترك أعظم الأثر عندما تكون آنية، إلا أن الأمر يستحق فى بعض الأحيان أن ننتظر ١٥٠ عامًا للحصول على الإجابة الصحيحة. فى القرن التاسع عشر كان العالم العظيم هكسلى T. H. Huxley يتساءل: "لو أن قلة المعرفة أمر خطير، فأين ذو المعرفة الغزيرة التى تُمكنه من البعد عن الخطر"؟

هذا السؤال يضرب قول بوب فى مقتل؛ فالرؤية الأصلية وراء هذا القول هى أن الفهم الجزئى المقصور على أمر ما يمكن أن يكون مضللا. ما لا تعرف قد يكون أكثر أهمية مما تعرف، ولكن يمكن أن يتم تضليلك بنوع مزيف من تأكيد حقيقة أنك على الأقل تعرف شيئًا. لذا كان ما يعرف رامسفيلد أنه يعرفه هو ما دفعه إلى القفز إلى نتائج عن الأشياء المعروف أنها غير معروفة، وإساءة تقدير أهمية الأمور المجهولة. لا يوجد عجز فى عدد الأشخاص الذين يعرفون القليل عن الأكاذيب التى ساقها بلير فى مرحلة التمهيد للحرب، والتى تعطيهم ثقة كبيرة فى أنه كاذب.

فى هذا الصدد، قد يتفق هكسلى وبوب. فقد كان قلق هكسلى على الرغم من ذلك ناتجًا عن أن خطر المعرفة القليلة يعود إلى نقصانها، وأن ما من أحد يملك المعرفة الكاملة، فكيف لنا أن نشعر بالأمان؟

الإجابة بالطبع هى أننا لن نتمكن من الشعور بالأمان، ولكن ذلك ليس مدعاة لليأس. فى الغالب يمكننا أن نرى أجزاء كافية من الصورة النهائية تمكننا من



استيضاح أمرها، حتى وإن لم تكن تلك الأجزاء فى محلها. كلما اكتملت الصورة، زادت ثقتنا، حتى إذا لم نكن على يقين تام بما سيسفر عنه وضع آخر جزء منها فى مكانه.

الأقل وضوحًا من هذا وإن كان أكثر أهمية، هو تحذير بوب ليس من الجهل فى حد ذاته، وإنما من عدم الوعى به. يجب أن نكون متيقظين لما لم نعرفه بعد، سواء كنا على علم بالكثير أو القليل، فالكثير من المعرفة قد يكون أمرًا خطيرًا أيضًا، وذلك إذا اعتقدنا خطأ أنه الحقيقة كاملة.

قارن

- الأعور فى بلد العميان ملك. (أوائل القرن السادس عشر)
- المعرفة لا تشغل حيزًا. (مثل إسبانى)
- من يعرف لا يتكلم. من يتكلم لا يعرف. (لاو تسو (Lau Tzu (C604-531BCE).



٤٣- لا تسل عما يمكن أن يقدمه بلدك لك، سل عما يمكنك أن تقدمه لبلدك

(جون. إف. كينيدى (John F. Kennedy (1917-1963)

سواء أكان جون كينيدى يستحق تلك القدسية الدنيوية أم لا، فقد كان خطابه الافتتاحى عام ١٩٦٠ بلا شك مناشدة رفيعة لجوانب أكثر رفعة ورقيًا فى نفوس مواطنيه. لقد أتاح سطر واحد صيغة أعيد استحضارها ومراجعتها مرات لا حصر لها منذ ذلك الوقت. لا تسل عما يمكن أن يقدمه لك بلدك - مدرستك - شركتك - أسرتك - كنيستك... إلخ. سل عما يمكنك أن تقدمه له.

قوة الجملة فى استحضار معنى لهدف سام عظيم جداً، تجعل من السهل الاستيلاء عليها للدفاع عن القوة والحظوة، أكثر من الصالح العام. النداء لخدمة الوطن يمكن بسهولة أن يكون حيلة لدفع الناس لخدمة أهداف الدولة أو الملك أو أى قادة آخرين.

على الرغم من ذلك، يمكن أن يعتبر خطأ كذلك التفكير فى أن الصالح العام الذى نُدعى إليه أمر جماعى مشترك. لم تكن العبارة لتؤثر فى ثقافة أمريكا الفردية الجامدة لو كان ذلك هو المعنى المراد منها.

"ما هو إذاً الجوهر الحقيقى أو الروح الحقيقية لمناشدة كينيدى؟ لقد كان السياق هو إدراك أن الإنسان يمتلك بين يديه القوة لإلغاء كل أشكال الفقر الإنسانى" وكذلك "كل أشكال الحياة الإنسانية". فى أثناء الحرب الباردة، كان يبدو أن هناك مستقبلين: انتصار الحرية والرفاهة أو إبادة كليهما وإن لم يكن كل الجنس البشرى.



لذا كان نداء كينيدى لمواطنيه الأمريكيين متبوعًا بآخر "رفقائى من مواطنى العالم: لا تسألوا عما يمكن أن تقدمه أمريكا لكم، بل عما يمكن أن نفعله معًا من أجل حرية الإنسان". كان كينيدى يناشد الناس لكى يتجمعوا حول هدف عام، ليس لأن الأهداف العامة المشتركة أكثر قيمة من الأهداف الفردية، ولكن لكى يتسنى للأفراد أن يحافظوا على الحرية، يجب أن يسلكوا مسلكًا جماعيًا. وبالنسبة للأمريكيين "بلدكم" ليست كتلة غير متبلورة، ولكنها مجموعة من الأفراد الأحرار. لذا كلما اعتدى على كلمات كينيدى للإيحاء بوجوب تقديم الجماعة على الفرد، لا تلقى وصيته الإجلال والاحترام اللائقين بها، بل تقوض دعائمها.

قارن

- من الجميل واللائق أن يموت المرء فى سبيل وطنه. هوراس Horace (8BCE-65).

- لم يكن وطنيًا بعد، ولكنه كان أحمق. چون درايدن John Doryden (١٦٣١-١٧٠٠).

- الوطنية هى الملاذ الأخير للأوغاد. صمويل چونسون Samuel Johnson (١٧٠٩-١٧٨٤).



٤٤- الحب أعمى

(أواخر القرن الرابع عشر)

ما الحب؟ يمكن للحب أن يكون كيوبيد؟ يصور فى الغالب على أنه أعمى ومن هنا جاء أصل هذا القول. الفكرة هى أن إله الحب يختار من يرمى بسهامه بصورة عشوائية، والإعجاب بالتأكيد يتجاهل أمورًا تافهة مثل كون الشخص لطيفًا أو مناسبًا. على أية حال، فقد درس العلم (قاتل البهجة) الانجذاب لعدد من السنين وأوضح أنه ليس العمى - بل عكسه - هو من يقوم بالدور هنا، عندما يتعلق الأمر بالإشارات الشخصية للملاءمة مثل الغنى والجمال. هناك تنوع كاف بين الأفراد يسمح بتآلفات مفاجئة قابلة للظهور، ولكن فى أغلب الأحيان يمكن التنبؤ باهتماماتنا.

لو أن الحب هو العاطفة الشديدة التى نشعر بها عند بداية علاقة، إذًا فالعلم هنا يدعم القول القديم. فى الحب الرومانسى، تكون منطقة المخ المتعلقة بإثارة المشاعر هى الأكثر نشاطًا، بينما تكون المناطق التى تتحكم فى التفكير النقدى وملكة التمييز، والتى تقع فى النصف الأيمن من المخ متعطلة عن العمل(٦). (المثير للدهشة أن الحب الأمومى يتطلب أيضًا تعطيل التفكير النقدى، لذا كان قول أبناء نابولى "حتى الصرصور جميل فى عينى أمه". على الرغم من ذلك، من المعروف أن هذا النوع من الحب الرومانسى العنيف يستمر لمدة عامين فقط وبعد ذلك تعود إلينا قدراتنا النقدية، وتعود للحب قدرته

(6) 'The neural correlates of maternal and romantic love', Andreas Bartels and Semir Zeki, NeuroImage, 21 (2004) 1155-66.



على الرؤية بوضوح مرة أخرى وسواء أكان ذلك سوء طالع أم لا، فذلك يعتمد على أى جانب من الستار تقف.

ولكن ماذا لو كان الحب هو الرابطة القوية الدائمة بين شخصين تبقيهم سويًا بعد انطفاء جذوة العاطفة؟ عادة ما يطلق على هذا الحب المودة والرحمة ولكن هذا التعريف يفشل فى الإمساك بالميل والدفء، وبالتأكيد على العاطفة الحقيقية التى يتضمنها هذا الحب. أصدق الحب هو الذى يرى المحبوب كما هو لدرجة كبيرة. ما يعجز الإعجاب عن رؤيته هو أن الحب ببساطة يختار أن ينسى ويسامح.

قــارن

- لا يمكن للمرء أن يحب وأن يكون حكيمًا فى الوقت نفسه. (أوائل القرن السادس عشر)
- تزوج فى عجلة واندم على مهل. (منتصف القرن السادس عشر)
- الزواج الجيد يدوم ثلاثة أيام والسيئ يدوم حتى الموت. (مثل إيطالى)



٤٥- لا تعر ولا تستعر

(وليم شكسبير (William Shakespeare (1564-1616)

بعض النصائح الخالدة تقدم لها التحية الواجبة في حال خرقها أكثر منه في حال التقيد بما جاء فيها؛ ذلك أنَّ قولَها أسهل من فعلها. فمن سيقترض إلا إذا اضطر لذلك؟ وبدون احتياجات المقترضين، فماذا ستكون أرباح الإقراض؟

كما هو الحال بالنسبة لأقوال كثيرة في هذا الكتاب، فمصدر القول وتطبيقاته العملية هي تحذيرات ضد التقيد بجدية القول. ففي مسرحية هامليت، نجد أن مستشار شكسبير الاقتصادي هو "بولونيوس" وهو ثرثار أحمق عجوز يضحك عليه الناس ولا يضحكون معه. نصيحته جزء من وداع تحذيري لابنه، حيث تبدو الحكمة والحصافة والحفاظ على السمعة الطيبة هي المبادئ الأساسية. الوصية الأخيرة "كن صادقًا مع نفسك"، انتصار تهكمي للنصح على الجانب العملي. بل والأكثر من ذلك أن بولونيوس، وهو من النبلاء، مثل من هم من أصول متواضعة، يجدون محاكاة صرامته المالية أمرًا أكثر صعوبة.

يحذر الاقتصاديون من الانسياق وراء الضحية بولونيوس على نطاق واسع، لأن ذلك يؤدي إلى اقتصاد أقل إنتاجية وكفاءة، كما أن الأزمة المالية العالمية في ٢٠٠٨ تجعلنا نتشكك في هذه النصيحة، ولكن المشكلة الأساسية كانت تتعلق بالفائض وعدم التوازن وليس بالإقراض في حد ذاته؛ فالتضور جوعًا ليس هو العلاج الطويل الأمد للسمنة، وإلغاء القروض ليس الطريق الصحيح لإيقاف القروض السيئة.



هناك كذلك جدل أخلاقى حول بعض الإقراض على أقل تقدير، فالعالم الذى يقترض فيه أحد هو عالم به أناس يتمتعون باكتفاء ذاتى، ولذا هم أقل اعتمادية على غيرهم. هناك مزايا لهذا الوضع بالطبع، ولكن فى عصر أصبح فيه تشظى المجتمعات مشكلة متزايدة، من الغريب أن ندافع عن مزيد من قلة الترابط.

على مستوى عملى فإن الإقراض على مستوى صغير هو إحدى الطرق المؤثرة لمساعدة الفقراء فى الاعتماد على أنفسهم. فالمشاريع الائتمانية الصغيرة كتلك التى روج لها محمد يونس الحاصل على جائزة نوبل للسلام تستخدم القروض التى تساعد، وليس تلك التى تعرقل المقترضين.

الاقتراض والإقراض مشكلة فى حال الاستغلال أو عدم القدرة عليه، ما عدا ذلك يمكن أن يكون أسلوبًا عمليًا وكريمًا لاستغلال الموارد على أفضل وجه، تجعل من يملكون القليل يتقدمون للأمام دون الحاجة للإحسان.

قــارن

- من يقترض يندم. (أواخر القرن الخامس عشر)
- اقرض أموالك واخسر أصدقاءك. (أواخر القرن الخامس عشر)
- الحسابات الكبيرة هى الأصدقاء الجيدون. (مثل فرنسى)



٤٦- الجمال فى عين الناظر

(منتصف القرن الثامن عشر)

من علامات العقل البليد أن يخلط بين أول الحوار وآخره، والقول بأن "الجمال فى عين الناظر" غالبًا ما ينظر إليه على أنه عين الحكمة التى تنهى المناظرة، وتتركنا مع الحاجة للقبول بأن الأذواق تختلف، وهذا كل ما يمكن أن يقال، ولكن على الرغم من أن قبول عدم موضوعية الحكم الجمالى قد يغلق بعض مجالات التحقق الموضوعى، يفتح مجالا آخر يمكن اعتباره على نفس الدرجة من الخصوبة على أقل تقدير.

خذ الجمال الإنسانى. قد يكون فى عين الناظر ولكن مع ذلك نجد أن عيوننا تتفق فى أحوال كثيرة. لو أن لى أن أطلب من مائة شخص ترتيب عشر صور لأشخاص مختلفى الهيئة جدًا حسب درجة الجمال، أراهن أنك تستطيع أن تخمن بدقة، فى المتوسط، أى منها ستكون الأولى. بل والأكثر من ذلك أننا يمكننا بالفعل التعرف على الصفات الموضوعية التى تعنى أن شخصًا مثل چورچ كلونى سيعتبر دائمًا أكثر وسامة منى. بصورة أخرى، انطباعاتنا غير المجردة عن الجمال هى، على الأقل جزئيًا، نتيجة الحقائق الموضوعية عن الطبيعة البشرية والعالم الاجتماعى، وكيف تبدو الأشياء فى الواقع، وعليه فالجمال موجود خارجنا ... "هناك"، كما أنه فى إدراكنا وتخيلنا العقلى.

إنها أيضًا حالة أن معنى أو مدلول الجمال يختلف وفقًا لما نتحدث عنه، عندما تكون المناظرة حول الفن أو الموسيقى على سبيل المثال، فنحن نهتم فى الغالب بما هو أكثر مما إذا كان جميلا أم لا. فنقد الفن فى جزء منه عبارة عن الذوق والحكم الشخصى،



وهو معنى كذلك بالشكل والبناء والمعنى والسياق التاريخى والاجتماعى والتكنيك وهكذا.

ما يخفق العقل البليد فى ملاحظته هو أن عين الناظر هى فى حد ذاتها موضوع ساحر للبحث الموضوعى، وهناك الكثير خارجها مما يمكن استكشافه ما دام راعينا الجمال وأخذناه بعين الاعتبار.

قارن

- الألوان والأنواق ليست عرضة للمساءلة. (مثل لاتينى)
- "مسألة ذوق" يقولها القرد ويقضم قطعة من الصابون. (مثل ألمانى)
- البعض يحب القس، والبعض يحب زوجته. (مثل مجرى)



٤٧- السعادة تتوقف علينا

أرسطو Aristotle (384-322 BCE)

ألق نظرة على قسم المساعدة الذاتية فى مكتبتك المحلية، وقد تظن أن أرسطو كان محقًا. كل ما تحتاجه لتكون سعيدًا فى متناول يدك؟ خذ بزمام حياتك، يمكنك أن تفوز بأصدقاء، أن تفقد من وزنك، أن تكسب ثقة وتحقق أهدافًا عظيمة وتحظى بحياة جنسية رائعة.

هذا ما لم يقصده أرسطو، مثل الرواقيين فى اليونان القديمة، كان يعتقد أن السعادة تتطلب القدرة على التعامل مع الحظ المتقلب، وليس القوة لترويضه. كيفية تفاعلنا مع الأحداث وليس ماهية الأحداث نفسها هو ما يحدد ما إذا كنا حقًا سعداء.

فى المقابل فإن ثقافة المساعدة الذاتية المعاصرة تعدنا بأنه يمكن لنا التحكم، ليس فى ردود أفعالنا تجاه الظروف، وإنما فى الظروف نفسها، فالفكرة ليست هى العيش مع الفشل، ولكنها تكمن فى تجنبهما. يجب علينا ألا نرتفع فوق مستوى أمواج الحظ، ولكن نحاول التحكم فيها. وعلى الرغم من ذلك، يعتبر كانوت(*) مرشدًا متواضعًا لمعيشة حكيمة.

لم يكن أرسطو مدافعًا عن القدرية السلبية، بل كان على العكس يعتقد أن الشخص الجيد هو الذى يكافح ليعيش حياة كريمة، ومن يفعلون ذلك يكونون أكثر

(*) كانوت Canute: ملك من ملوك الفايكنج فى الدانمارك (٩٩٤-١٠٣٥) له إسهامات ناجحة كثيرة فى الحياة السياسية والعسكرية. (المترجمة)



سعادة من غيرهم. لكن على الرغم من مقدرتنا على تشكيل الأحداث، فالشيء الوحيد الذى يقع تحت سيطرتنا بالكامل هو كيف تكون ردود أفعالنا تجاهها؛ لذا نحتاج أن نعى ذلك جيداً إذا ما كنا نريد أن نملك زمام أمورنا.

تعتبر الرسالة ثقلا قيمًا مقابل الوعود الجوفاء التى تحملها الإعلانات والمجلات اللامعة، ولكن يمكن أخذها بطريقة حرفية. فى بعض الأحيان، تكون السعادة خارج نطاق حدودنا وتحكمنا. وعلى الرغم من استهلاك كميات كبيرة من العقاقير المضادة للاكتئاب، فإن هناك بعض الحالات التى يكون سبب الاكتئاب فيها على الأقل خلل فى التوازن الكيميائى فى العقل. لهؤلاء، تكون حكمة أرسطو بلا فائدة تمامًا مثلها مثل أكثر كتب المساعدة الذاتية مبيعًا.

قــارن

- كل إنسان هو صانع حظه فى الحياة. (منتصف القرن السادس عشر)
- دع الدموع تنهمر طوعًا؛ فانهمارها متسق مع السلام والتوازن الداخلى. (سينيكا) Seneca (AD65-4BCE)
- لا شيء يحدث لأى إنسان ليس فى مقدور طبيعته أن تتحمله. (ماركوس أوريليوس (121-80) Marcus Aurelius)



٤٨- إذا كان سليمًا فلا تحاول إصلاحه

(أواخر القرن العشرين)

عدم فعل أى شىء هو خمول لم يعط حق قدره. عندما ينطلق النداء "لا بد أن نفعل شيئًا" من المفيد أن نتوقف لنسأل لماذا؟ الفعل، كما قال چوزيف كونراد **Joseph Conrad**: "عدو الفكر وصديق الأوهام المداهنة". يمكن أن يجعلنا نشعر بأننا نتعامل مع مشكلة حتى لو كنا فى واقع الأمر نزيد الطين بِلَّة أو حتى نتجنبها. على سبيل المثال، لقد سمعت مؤخرًا عن مجموعة من الركاب فى محطة قطار كانت قد أغلقت بشكل مؤقت، ونُصحوا بأن يسلكوا تحويلة طويلة أفضل من الانتظار فى المحطة، حتى تُستأنف الخدمة وكان ذلك يطيل من زمن الرحلة بالتأكيد. ولكن، كما شرح أحد العاملين، هناك قد قدموا هذا الاقتراح لأن "الناس تفضل الحركة".

الانحياز للفعل مقابل اللا فعل يتضح بجلاء فى المجال السياسى؛ إنه سياسى نادر وشجاع ذلك الذى قال "هذا الأمر جد مهم، ولكن حيث إن التدابير المتاحة الآن من المحتمل أن تزيد الأمور سوءًا أو على أكثر تقدير تترك الأمور، كما هى وليست أفضل، فإن خير ما نقوم به هو ألا نفعل شيئًا". القائد الذى يقول إنه يحب أن نفعل شيئًا، ويمكن أن نفعله، يبدو قويًا وقاطعًا؛ أما الذى يقول: لا يمكن ولا ينبغى أن نفعل شيئًا، يبدو ضعيفًا يفتقر للخيال.

هناك، على أية حال، خطر الوقوع فى الخطأ المقابل وهو تعدد مزايا الخمول والقعود عن العمل بصورة مبالغ فيها، فعلى الرغم من ذلك فإن القيام بالفعل فى وقته المناسب يوفر الكثير. إصلاح الشىء الذى تعطل أمر جدير بالاهتمام لتجنب الفشل التام فى المستقبل.



وبشكل أساسى، إذا ترك الشىء السليم كما هو يمكن أن يُفهم على أنه تحفظ غير تطورى يتخفى فى صورة بديهة عامة. حقيقة أداء الإقطاع، والعبودية والملكية المطلقة غير المنتجة لوظيفة ما، يمكن أن تكون مجادلة سيئة للإبقاء عليها. إذا ما كانت تعمل ضد مصالح الأقلية المقهورة أو حتى الأغلبية أو حتى لو كانت هناك بدائل أفضل، فإصلاحها هو الشىء الصحيح الذى يتعين القيام به. أن يكون لدينا شىء سليم فذلك لا يعنى أن علينا أن نبقى عليه كما هو.

قـارن

- عندما تشك فى شىء لا تقدم على فعل شىء. (منتصف القرن التاسع عشر)
- من ترك داره قل مقداره. (مثل إسبانى)
- كل شىء جديد، كل شىء جميل. (مثل فرنسى)



٤٩- يضيع الشباب هباءً على الشباب

چورج برنارد شو George Bernard Shaw (١٨٥٦-١٩٥٠)

يبرع الناس فى إضاعة ما لديهم فائض وفير منه، ويبدو من الظلم أن يخص الشباب بالتبديد. ألا يمكن القول بنفس الطريقة أن المال يضيع على الأغنياء، والحظ يُبعثر على المحظوظين، أو أن الجمال يفتت على من يتمتعون به؟ هناك ما لا يمكن إحصاؤه من الأسماء والصفات المرتبطة بها، التى يمكن إدخالها على صيغة هذا القول وكل منها ينتج تعبيراً له رنين الحقيقة.

"الشباب" و"الشبان"، مع ذلك، تنتج بصورة جدلية أحد أكثر الإفتراضات الملتبسة والمشكوك فيها. فشكوى الكبار هى أن الشباب لديهم الحيوية، والصحة ولا مسئوليات وعالم متاح أمامهم ملىء بالإمكانات ومع ذلك يفشلون فى استغلال هذه النعم استغلالا كاملا.

ومع ذلك، ومع الأخذ فى الاعتبار طبيعة الشباب فإن ذلك يعتبر أمراً حتمياً، على سبيل المثال، ألا يكون لديك مسئوليات يعنى أن تعيش بدون أى اهتمام بما هو آت على المدى البعيد أو ما قد يجلبه لك الغد. ولكن بينما فقدان الشباب للمسئولية هو غياب لشىء آت مستقبلا، فالاستقلال الذى نتلهف عليه فى الكبر يتطلب إبعاد شىء طالما أعاقنا وعرقلنا. فأولئك الذين يتحررون من عبء المسئولية التى تحملوها لسنين سيكونون بالطبع على أهبة الاستعداد لاستقبال الإمكانات الكامنة مع الحرية. يشعر بالحرية كل من كان يوماً ما مقيداً بالسلاسل، وحينها لا نتوقع من الشباب أن يقدر الحرية حق قدرها، فمن حرم من خلو بال الشباب أو القلة ممن يتصفون بالحكمة المبكرة يتعلمون أن يقدروها حق قدرها قبل أن يتقدم بهم العمر.



عبارة "الشباب يضيع على الشباب" يجب أن تفهم في ضوء كونها متناقضة ظاهريًا، وربما ساخرة. لو أننا نعتقد حقًا أن الشباب نعمة، فيجب أن نرى الشباب وهم يضيعونه كعلامة حتمية على أن شبابهم سليم معافى لا يفسد من التجربة المريرة، ونبتسم على تبذيرهم وإسرافهم ولا نبكي عليه.

قارن

- لو عرف الشباب ولو استطاع الكبار. (مثل فرنسي)
- البعض يتمنى أن يكون له لحية، ومن لهم يبصقون عليها. (مثل يوناني)
- بومة مينيرفا[*] Minerva تفرد جناحيها وقت الغسق فقط. هيجيل G. W. F. Hegel (١٧٧٠-١٨٣١).

(*) مينيرفا Minerva: إلهة الحكمة والفنون والحرب عند الرومان. (المترجمة)



٥٠- لا تستطيع أن تحكم على الكتاب من عنوانه

(أوائل القرن العشرين)

نعلم أن المظاهر يمكن أن تكون خادعة فليس كل ما يلمع ذهبًا على سبيل المثال، ومع ذلك تأتى مرحلة نرى فيها ما يكفى من الظاهر لدرجة تمكننا من استنتاج أن ذلك الظاهر هو الحقيقة فعلا. "إذا كانت تشبه البطة، وتمشى مثل البطة وتصدر أصواتًا مثلها، فلا بد إذًا من أن تكون بطة".

الكاتب الذى ينسب إليه هذا القول حالة اختبار جيدة لقيمة هذا المثل وأوجه قصوره. من المفترض أن والتر رويتر Walter Reuther قالها فى أثناء فترة مكارثى McCarthy كتفسير يمكنك من الكشف عن الشيوعى. ولكن رويتر لم يكن مكارثيًا نمطيًا. كان ينتمى للحزب الديمقراطى، وكان نقابيًا حارب جل حياته من أجل حقوق العمال، كما كان من أوائل المروجين لحملات التوعية البيئية ومساعداً فى تطهير بحيرة إيرى .Lake Erie

لذا يعتبر رويتر مثالا جيداً على خداع المظاهر، وذلك عندما لا تعيرها الانتباه الكافى. ببساطة، لك أن تلاحظ عداءه القاسى للشيوعية وستسىء فهمه، ولكنك إذا نظرت إلى مجمل ما قام به من أعمال، فسوف يكون حكمك عليه صحيحًا. قد ينجح اختبار البطة، ولكن إذا اختبرت شكلها وحركاتها وصوتها. جانب واحد فقط قد يكون مضللا. بالمثل، قد يعتبر تهوراً الحكم على الكتاب من عنوانه، ولكن لا يبقى هناك أمر خفى بعد أن تقرأ المحتويات، فهو كما هو ظاهر للعيان.



أما حقيقة أن المظاهر قد تكون خادعة فلا تعنى أنه هناك أكثر مما يمكنك أن تراه بأم عينك. ماذا يتبقى لديك بعد أن تنزع عن أى شيء تصرفاته وكلامه وشكله وطعمه وشعوره ورائحته. الإجابة هى إجابة الفيلسوف الأيرلندى چورچ بيركلى George Berkeley الذى يقول باستخفاف "شيء ما، لا أعرف ما هو".

يمكن أن يعتبر قويًا القول بأن كل شيء ما هو إلا مجموع صوره الظاهرية، ولكن يمكننا أن نحكم على أى شيء أو أى شخص على أساس ما يمكن ملاحظته، ولو أمعنا وأطلنا النظر فيمكن الوثوق فى تلك الأحكام.

قــارن

- العادة لا تصنع ناسكًا. (مثل إيطالى)
- ليس الطهاة وحدهم من يملكون سكاكين طويلة. (مثل هولندى)
- فى الخمسين يصبح لكل منا الوجه الذى يستحق. چورچ أورويل George Orwell (١٩٠٣-١٩٥٠).



٥١- كل الرجال مغتصبون

(مارلين فرنش (Marilyn French (- 1929)

نحن لا نسلم بالأقوال والأمثال التى نفترض أنها حقيقية فقط. هناك بعض الأقوال المؤكدة والسيئة السمعة التى تأخذ الصفة المقابلة. تلك الأقوال تصبح أمثلة على الهراء الواضح بذاته، ومن ثم ينظر إليها على أنها أدلة على حماقة الناس فى بعض الأحيان. تعليق مارلين فرنش الشهير أن "كل الرجال مغتصبون" هو أحد تلك الأمثلة، وقد قوبل بالكثير من السخرية والتهكم، كدليل على بلادة ولا معقولية الحركات النسوية المناضلة من أجل قضايا المرأة ومساواتها بالرجل.

ولكن عندما يُنسب رأى قوبل باستهزاء لمجموعة ما، عليك أن تتوخى الحذر. فى هذه الحالة، أول ما تحتاج أن تعرفه هو أن قول فرنش ذلك قد جاء على لسان إحدى شخصياتها فى روايتها "غرفة النساء"، وهو تعبير متطرف عن رأى أكثر اعتدالا يرى الجنسية الذكورية على أنها قهرية وقاتمة.

وقد قدمت أندريا دوركين Andrea Dworkin مثالا لذلك عندما كتبت "من الصعب التمييز بين الإغواء والاغتصاب. فى حالة الإغواء، يشترى المغتصب زجاجة من النبيذ". هنا نجد حقيقة كامنة متربصة إذا واتتنا الجرأة لنبحث عنها.

لتأخذ مثلا عقاقير الاغتصاب مثل Rohypnol, GHB. أن يضع المغتصب أيا من تلك العقاقير فى شراب ثم يقدم على فعلته بدون وعى المجنى عليها فذلك اغتصاب بكل وضوح، ولن يدافع عنه أى شخص عاقل، ولكن ماذا فى حالة التخطيط لمحاولة الإيقاع بالفريسة وجعلها تفرط فى الشراب، وهذا الأمر منتشر جداً، ويتندر الناس به.



الفرق الأساسى بين الاغتصاب عن طريق العقاقير والاغتصاب عن طريق الإفراط فى الشراب هو أن الشخص الذى يقدم على المشروبات الكحولية يختار أن يقوم بذلك. ولكن ما مدى اتساع الفجوة بين "غاو" غير ثمل يستمر فى تزويد شخص سكران بالفعل بالمزيد من الشراب، وغيره ممن يضعون العقار فى الشراب فى سرعة وخلسة فى موعد غرامى؟

هنا نجد لدينا أموراً جدية تواجه خطراً، ومع ذلك فإن تأثير استمرارية القول بأن "**كل الرجال مغتصبون" هو أن قلق الحركات النسوية تجاه الجنسية الذكورية يمكن أن** ينظر إليه على أنه عبثى ومتطرف. إنه إحدى الخدع القديمة فى علم البيان والبلاغة: ضع كلاماً على لسان شخص ما، ثم وجه إليه إصبع الإتهام لأنه قال ذلك.

قارن

- لا يوجد مجتمع. (مارجريت تاتشر Margaret Thatcher (1925)). قول يقتبس بكثرة دون تكملته وهى "هناك أفراد؛ رجال ونساء، وهناك أسر".
- هناك بعض الأوغاد يمكن أن يُغرقوا شركاءهم وأولادهم فى بحر متجمد. (حنيف قريشى Hanif Kureshi على لسان إحدى شخصياته فى رواية "حالة مودة".
- ٩٥٪ من تجارب النساء تتعلق بكونهن ضحايا ومظلومات، ويتعين عليهن البقاء على قيد الحياة. چودى فوستر Jodie Foster (1962-). قول يقتبس بكثرة بدون الجزء الأول وهو "وفيما يتعلق بالنساء فى التاريخ فإن...".



٥٢- البرق لا يضرب المكان نفسه مرتين

(منتصف القرن التاسع عشر)

عندما يكون لدينا تعبير يعرف الجميع تقريبًا أنه خطأ ويظل قائمًا لمدة طويلة، فربما يكون السؤال عن السبب ربما يكون أكثر إقناعًا من سبر أغوار التعبير بصورة مباشرة.

عرف الناس لقرون عدة أن البرق يمكن فى بعض الأحيان أن يضرب المكان نفسه مرتين، فهو فى الغالب ما يفعل ذلك. سيبحث البرق دائمًا عن أقصر الطرق للأرض؛ لذا فإن أعلى شيء موصل فى أى منطقة سيكون أول شيء تصطدم به العاصفة. لذا نجد أعمدة البرق مثبتة فى أبراج الكنيسة.

على المستوى الرمزى، ينطبق هذا المثل على القوى القدرية التى تتسم بالقوة وعدم التنبؤ بها أو التحكم فيها؛ ولذا كان يُعتقد أن الآلهة هى السبب فيها، حيث تبدو أكثر من طبيعية لأنها قوى خارقة للطبيعة.

حتى وإن كانت ضربات الحظ السيئ عشوائية مثل ضربات البرق المجازية، فمن غير المنطقى أن يستخدم عدم القدرة على التنبؤ بها كسبب للتنبؤ بأنها لن تحدث مرة أخرى، فإلهة الحظ تعتبر فاقدة للذاكرة أكثر من كونها متقلبة، وهى لا تتذكر من مرَّ بالفعل بتجارب عصيبة عندما تقدم لهم المزيد من ويلاتها. ضربة البرق ليست مثل المرض الذى يعطيك مناعة إن أُصبتَ به.

من الأفضل التفكير بشأن إمكانية التنبؤ بالعواصف الكهربائية أكثر من عدم القدرة على التنبؤ بها. نحتاج أن ننظر حولنا ونتحقق من أننا جعلنا من أنفسنا أهدافًا



بدون قصد، لأنك تصبح حذراً عندما تضرب مرتين. يتحدث الناس عن صاعقة تأتى من حيث لا يعلمون، ولكن العواصف الرعدية لا تظهر بدون مقدمات. هل فشلنا فى الانتباه إلى العلاقات؟ هل تركنا أنفسنا فى خطر العراء بلا سقف يحمينا؟ إذا لم يكن فى وسعنا غير ذلك، ألا يمكن إذا ثبتنا عصا البرق فى مكانها فى الوقت الصحيح أن ننقذ أنفسنا؟

هذه أسئلة مجازية بالطبع، ولكنها صور بلاغية مفيدة، فهى تطرح أسئلة صعبة عن العالم كما هو، وعن مكاننا عليه. **الحظ العشوائى السيئ حقيقى، كذلك ألم أولئك الذين تضربهم الويلات واحدة تلو الأخرى لأنهم عجزوا عن رؤية أنهم من وضعوا أعمدة البرق فوق ظهورهم.**

قارن

- إنها لا تمطر بل تنهمر. (أوائل القرن الثامن عشر)
- ما من عاصفة تستمر طويلا. (مثل إسبانى)
- قلما توجد موجة واحدة. (مثل أيسلندى)



٥٣- من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر

(إنجيل يوحنا John 8:7)

قبل عدة سنوات، عرض التليفزيون البريطانى دراما ترتكز على فرضية تتكرر بصورة مستمرة. ماذا يحدث لو عاد المسيح اليوم؟ أتتذكر أن الذى قام بدور المسيح فى ذلك العمل كان من مدينة جلاسجو. أحد المشاهد أعاد تطوير القصة الإنجيلية عندما جاء جمع إلى المسيح ومعهم امرأة وقالوا: يا أبانا، إن هذه المرأة زانية وقد ضبطت متلبسة بفعلتها، وقد أمرنا موسى فى وصاياه بأن تُرجم، فما قولك أنت؟ فكر المسيح فى الأمر طويلا وهو يرسم على الرمل قبل أن يجيب قائلا: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"، ثم بدأ الجمع فى التفرق ببطء، ولم تتعرض المرأة لأى أذى، ثم قال لها المسيح: "اذهبى ولا تخطئى مرة أخرى".

وفى النسخة الإسكتلندية، يمر المسيح على جمع من الرجال كانوا يستعدون لضرب امرأة زانية، وينعتونها بالعاهرة والخبيثة، وهم هنا لم يسألوا النصيحة ولكن المسيح قال لهم ببساطة: "ألم تفعلوها أنفسكم؟".

التطوير هنا فى رأيى يدل على فطنة وفراسة، فقد أصبحنا نعتقد فى "من كان فيكم بلا خطيئة..." إنها نصيحة عامة بعدم الحكم على الآخرين، ولكن إذا كانت تلك هى الحالة فلن تكون نصيحة عملية. تخيل بلداً لم يقدم فيه اللصوص المعتدين والقتلة للعدالة؛ لأن الناس الوحيدين المؤهلين لذلك هم الأبرياء تماماً من أى شبهة.

الأصول الإنجيلية للجملة لا تدعم هذه السكونية العامة، بينما يعد تفسيراً حرفياً أن نقول إن النصيحة تنطبق على الرجم والزنا فقط، ومن الحماقة كذلك أن نفترض أن



الموقف المحدد لم يكن له علاقة بذلك. إن الحالة الأصلية مثال ملائم للرسالة الأكثر عمومية لأنها مثال لعقاب شديد على رعونة وطيش عام. فى تلك الأحوال تكون الإدانة القاسية منافقة وغير متناسبة مع الفعل فى الوقت ذاته.

إن الأمر بعدم الرجم ينبغى ألا يقرأ على أنه رجاء لغض الطرف دائمًا. إنه، ببساطة، تذكرة بألا نكون أكثر قسوة على غيرنا مما يكون غيرنا علينا، والتأكد من أن أى عقوبة نطالب بها تناسب الجريمة، قد يكون الرجم امتياز وحق لمن هو طاهر الذيل، **ولكن إصدار الغرامات لا يتطلب الطهارة نفسها.**

قارن

- إبريق الشاى يقول لغلاية الشاى يا سوداء. (أواخر القرن السابع عشر)
- تنعت البومة العصفور بذى الرأس الكبير. (مثل مجرى)
- أول من ينادى لإيقاف اللص، يكون فى الغالب سارق الكنز. (وليم كونجريف (William Congreve (1670-1729)



٥٤- ما لا تراه العين، لا يأسى له القلب

(القرن السادس عشر)

إذا كنت تعتقد أن ما لا تعرفه لا يمكن أن يصيبك بأذى، فتحدث مع اختصاصى فى أمراض الكبد. الكبد لا يحتوى على أى مستقبلات للألم، لذا فإن الأشخاص الذين يشربون، تقريبًا، زجاجة من النبيذ يوميًا ولمدة عشر سنوات يكونون عرضة لخطر أمراض الكبد، فهم لا يعلمون شيئًا عن حالة الكبد الآخذة فى السوء إلا بعد فوات الأوان، مثل الرصاصات الطائرة تجاه الرأس من الخلف أو الضرائب الخفية، فإن أثر مرض الكبد لا يقل بعدم معرفتنا به.

ولكن فكرة المثل القائم بين يدينا الآن مختلفة بصورة مهمة، ففى حالة من يفرط فى الشراب نجد أنه يؤثر على كبده بالسلب وإن كان لا يبدو عليه التأثر من حالته التى تسوء، تمامًا مثل دافع الضرائب الخفية الذى لا يشعر بها رغم أنه يدفعها، ولذا ينعم فى جهله بتحسن زائف فى أوضاعه. فى كلتا الحالتين الضرر حقيقى ولكنه لا يسبب أى ضيق. الجهل نعمة، ولكنه جنة للأحمق.

ولكن ماذا عن الأشياء التى لا تستطيع العين رؤيتها فحسب، بل ولن تراها أبدًا؟ الخيانة التى تبقى سرًا دائمًا، الطعن فى الظهر الذى لا تعرف الضحية مصدره، أو أى عدد من الأوهام التى لا تتكسر، عن أنفسنا أو غيرنا؟ فما الهدف من مساعدة الناس على معرفة تلك الحقائق التى سوف تؤدى إلى إيذائهم لو أنهم سيكونون أكثر سعادة فى حالة جهلهم بها؟



كل حالة من هذه الإشكاليات يمكن أن تحل على حدة، ولكن حقيقة أن الناس سيكونون أكثر سعادة بجهلهم بها لا يمسك بالأمر من كل وجوهه. عندما لا يعرف المحروم الشيء الذى حرم منه، فذلك لا يقلل من حقيقة حرمانه. قد لا يفضل البعض معرفة الحقائق البغيضة، بينما يختار غيرهم الحقيقة على الاطمئنان الجاهل بها. قد لا يكون هناك حسنة فى إخبار شخص بما لا يود سماعه، ولكن أن نخفى شيئًا عن شخص يود معرفة الحقيقة فذلك يعتبر، بصور عدة، إلحاق ضرر بذلك الشخص، لأنه يقلل من قدرته على العيش كما يختار.

قــارن

- بعيد عن العين، بعيد عن العقل. (منتصف القرن الثالث عشر)
- شريحة من رغيف لا تهم. (منتصف القرن السادس عشر)
- البعيد عن العين، بعيد عن القلب. (مثل فرنسى)



٥٥- أفضل الموت مبكرًا على أن يمتد بى العمر.
أفضل أن أحترق على أن أذوى بعيدًا.

(نيل يونج (1945) Neil Young)

ليس فنانو الروك أند رول وحدهم هم من كانوا يشجبون الحياة التى لا تسفر عن شىء أو لا تخلف ورائها أثرًا، وقد حث ديلان توماس Dylan Thomas قائلا: "لا تهدءوا لسكون ليلة هانئة. ثوروا، ثوروا ضد انطفـــاء الضـــوء". وبالمثل نجد تى. إس. إليوت T. S. Eliot يكتب أن العالم ينتهى "ليس على ضربة مدوية، ولكن على أنين"، ولم يكن بذلك يحاول أن يُسرى عنا.

ولكن هل هذا هو ما نعتقده حقًا؟ اطرح السؤال "هل الأفضل أن أحترق من أن أذوى بعيدًا؟" وسيقول الكثيرون: نعم. ولكن سل كيف تحب أن تموت؟" معظم الناس يجيبون "وأنا نائم فى سلام" "وبعد عمر طويل مديد"، تمامًا مثل إجابات المشاهير فى ملاحق عطلة نهاية الأسبوع.

الحقيقة وراء أشعار يونج وتوماس هى أن من الأفضل أن تصل إلى نهاية حياتك، وقد صرفت كل حسابك فيها. نجد الفكرة نفسها فى كلمات ريدلى سكوت Ridley Scott من فيلم البوليس السرى "المصباح ذو الضوء الباهر، ينير لنصف الوقت". ما يهم ليس هو طول الحياة، ولكن أن تكون قد استخدمت كل الضوء المتاح فيها.

يعتبر ذلك بعيدًا عن الرغبة الرومانسية الساذجة لدى فنانى الروك أند رول فى العيش بإيقاع سريع والموت مبكرًا، فقد تمنى روچر دالترى Roger Daltry ذات مرة أن



يموت قبل أن يتقـدم به العمر، ولكنـه الآن على المعـاش ويشعر بالرضـا لأن أمنيتـه لـم تتحقـق.

الموت المبكر خسارة تمامًا مثل العيش طويلا وإضاعة الوقت وبعثرته فيما لا طائل من ورائه. لقد عـرف نيل يونج ذلك؛ ولذا كـتب "يا هذا، إنهـا لى" وكـتب كذلك "الإبرة والضرر الذى وقع"، وهو رثاء لحياة مقيدة بسبب تعاطى الهيروين. ليس إيقاع الحياة السريع ولا طولها ولا الطـريقة التى يمـوت عليهـا الإنسان هى ما يهم. ما يهم هو **أنه عندما تأتى لحظة القدر الفاصلة ولحظـة التدبر الأخـيرة، ألا يكون فى الشمعة** ذبالة لم تحترق.

قـارن

- يدعو الله من يحب. (مثل إسبانى)
- لكل شىء نهاية، السجق له نهايتان. (مثل ألمانى)
- سيأتى الموت ويجدنى على قيد الحياة. (مثل إيطالى)



٥٦- القلق فائدة تدفعها مقدمًا

(أوائل القرن العشرين)

القلق مثل موقع التواصل الاجتماعى للمشاعر. القليلون يعرفون الفائدة من ورائه، ولكن الكثيرين يقعون فى شباكه، فما الفائدة من وراء القلق؟ كان الجنود الإنجليز يغنون وهم مصطفون فى انتظار الذبح فى خنادق الحرب العالمية الأولى قائلين: "لم يكن ورائه طائل أبدًا"، مهما كان قدر القلق فهو لم يكن لينقذ من قُتلوا. فقط يمكن أن يجعل آخر أيامهم على الأرض جحيمًا أكثر مما كانت عليه.

ولكن تخيل الآن الجنرالات وهم يخططون لحملاتهم. ربما يقول أحدهم، مع الأخذ فى الاعتبار تبعات الخطة الواحدة، إنه قلق لأن رجاله سيتحولون إلى ذخيرة للمدافع لو استمر الهجوم. وإذا أردنا أن نوجه له اللوم على قلقه ونقول إن القلق لا طائل من ورائه أبدًا، فلن يكون ذلك القول بمثابة نصيحة حكيمة بل تعاملا غريبًا لا يكترث بالحياة.

الفرق بين أولئك الجنرالات فى موقع المسئولية وغيرهم هو أن قلق من هم فى موقع يؤهلهم لتغيير الأمور، يمكن أن ينقذ حياة الجنود. القلق يكون بلا جدوى عندما لا يستطيع أن يحدث تغييراً، ولكن عندما يقود إلى مراجعات تحسن من الأشياء فهو لا يقدر بثمن.

لذا نجد أن الحكومة لديها مهنيون يفكرون بكل الطرق وبكل الاحتمالات المرعبة، وذلك للتأكد من أن البلاد مؤهلة للتعامل مع أسوأ السيناريوهات. القلق يجعلنا نتوقع المشكلة وعليه نتعامل معها على نحو أكثر كفاءة. على سبيل المثال، لو كان الأشخاص



المناسبون يقلقون على الأشياء المناسبة لما تمكنت الأزمة المالية فى ٢٠٠٨ من أن تخلف مثل ذلك الأثر السيئ.

العقبة هنا هى أنه لا يوجد تمييز واضح بين الأمور التى يمكن أن تسفر عن كوارث لا يمكن تفاديها، وتلك التى نتمكن من تجنبها. أضف إلى ذلك، أننا يجب أن نأخذ كل الاحتمالات فى الحسبان، وإلا سنمضى كل حياتنا نحمى أنفسنا من كوارث من المستبعد أن تصيبنا، ولكننا فى الغالب الأعم لا نحسن قبول فكرة عدم قدرتنا **على تغيير أشياء بعينها أو حتى اتخاذ قرارات عقلانية مبنية على احتمالات،** ولذا نجد أنفسنا نقلق أكثر من اللازم، ولكن الاقتراح بألا نقلق بالمرة فيجب أن ننظر إليه بعين القلق.

قارن

- لا تعبر الجسر حتى تصل إليه. (منتصف القرن التاسع عشر)
- من يتبع النُذُر، ستتبعه النُذُر. (مثل إسكتلندى، أوائل القرن الثامن عشر)
- لا تقلق على البيض الذى لم يوضع بعد. (مثل ألمانى)



٥٧- لو لم يكن الله موجودًا لكان كل شىء مباحًا

(فيودور دوستويفسكى (81-1821) Fyodor Dostoyvsky)

فى رواية الإخوة كارامازوف، نجد إيفان يتحدث بلسان حال الكثيرين عندما يدعى أنه لا توجد حدود لما يمكن أن نفعله فى عالم بلا إله. الأعداد الغفيرة من غير المؤمنين ينكرون أن الإلحاد الأخلاقى تناقض لفظى، ومع ذلك فإن ادعاء إيفان زيف واضح وافتراء رهيب على اللادينى. عند النظر إلى العبارة نفسها على أنها صحيحة وخاطئة فى الوقت نفسه فذلك دليل على أن الأمر يعتوره الكثير من الغموض.

الخطأ الواضح هو فكرة أن كل شىء مقبول عند الملحدين. ادعى تشيسترتون G. K. Chesterton هذه الفكرة بجلاء عندما قيل على لسانه "عندما يتوقف الناس عن الإيمان بالله، فهم لا يؤمنون بلا شىء، بل يؤمنون بأى شىء". غالبًا ما يكون العكس هو الصحيح. يقاد الكثيرون للتخلى عن الإيمان بالله، عن حق أو خطأ، وذلك لأنهم يشعرون بأنهم مجبرون على هذه الخطوة تحت وطأة الدليل أو حجية المجادلة. أى شخص لديه مثل هذا الالتزام بأن يؤمن بما يتوفر لديه من الأسباب للإيمان به، من الواضح أنه لن يؤمن بأى شىء بسهولة.

فرضية أن الملحدين مثيرو فوضى المبادئ عندما يتعلق الأمر بالأخلاق، فرضية مضللة. حتى لو لم تكن القوانين الأخلاقية مفروضة من قبل سلطة أعلى، فإن مناصرى حقوق الإنسان المدنيين لديهم أسباب أخرى عديدة ليكونوا صالحين ومناهضين للظلم والاعتداء مثل أى شخص آخر.



ولكن هذا لا يعنى ببساطة خطأ إيفان. هناك معنى فى أن كل شىء يكون مباحًا عندما يذهب الله. فبدون الله، لن تكون هناك سلطة خارجية لفرض الأخلاق على آثام الجنس البشرى. مثلما يوضح عمل وودى آلان Woody Allen "الجرائم والمخالفات"، إذا أقدمنا على فعل خاطئ فى عالم بلا إله، وأبقينا على خطيئتنا سرًا فسنفلت من العقاب.

وإذا اعتبرنا كلمات إيفان تعنى أنه بدون الله لا يوجد شر عظيم لدرجة تستوجب **إنزال العقاب به. فى هذه الحالة نحن على صواب، ونخطئ فقط عندما نظن أنها تعنى** أنه ليس بالإمكان أن يكون لدينا أخلاق إنسانية، ونحن مسئولون عن إقرارها.

قارن

- فى البدء كانت فكرة الخوف وراء ظهور الآلهة. (بن جونسون Ben Johnson (1573-1637).
- لو لم يكن الله موجودًا، لكان من الضرورى اختراعه. (ڤولتير Volteure (1694-1778).
- فكرة الإله تصيب كل ما هو مستقيم بالاعوجاج. (فريدريك نيتشه Friedrich Nietzche (1844-1900).



٥٨- الشيطان الذى تعرف أفضل من الشيطان الذى لا تعرف

(منتصف القرن التاسع عشر)

المجهول دائمًا مغامرة. جربه، وستجد نفسك أمام صدمة سيئة. أما تجاهله فسيفوت عليك فرصة فريدة لتثرى حياتك. فماذا نحن فاعلون؟

يقتبس هذا القول كثيراً عن روبرت فروست **Robert Frost** وهو الذى طالما ادعى إفادته من اتخاذ السبل غير المطروقة. هناك مثل إيطالى يستخدم الصورة البلاغية نفسها، ولكن مع صياغة أخرى: من يترك الطريق القديم ليأخذ آخر جديداً يعرف ما هو تارك ولا يعرف ما هو مقدم عليه. غالبًا ما يقدم ذلك كتحذير، ولكن يمكن اعتباره وصفًا وليس نصيحة إرشادية على الطريق. معرفتك بما تركت قد تكون السبب فى البحث عن جديد، كما قد تعنى البقاء فى مكان معين.

على الجانب الحذر، هناك فكرة أننا نكون أفضل مع الشيطان الذى نعرفه حقًا، من الصعب التفكير فى نصيحة أكثر تحفظًا، فقد تقدم على المغامرة مع المجهول إذا كنت تعرف أن ما هو معلوم مروع. ولكن لا، حتى عندما يكون المألوف شيطانيًا، دائمًا ما يقال لنا إننا أفضل حيث نحن.

قد يكون للمثل قيمة أكثر عندما نأخذ الشياطين بالاعتبار. عند الاختيار، يكون من الأفضل بالفعل البقاء مع الشيطان الذى تعرف عنه القليل، لتكون على الأقل مستعداً لخططه الملتوية. ولكن ماذا لو كان الاختيار بين الشيطان المعروف والغريب المجهول؟



هنا تكون مجازفة؛ ولكن فى حالات كهذه، ألا تكون معرفتك بما تركت سببًا كافيًا لتجرب شيئًا جديدًا؟ الرقص مع الشيطان فى حفلة راقصة فى الجحيم شيء، وأن تتخبط مع إبليس عندما يجلس القديسون والبشر فى خمول فى مقاعد المتفرجين شيء آخر.

قارن

- من يتناول عشاءه مع الشيطان يجب أن يكون معه ملعقة طويلة. (أواخر القرن الرابع عشر)
- اجعل أصدقاءك مقربين، وأعداءك أكثر قربًا. (سن تسو Sun Tzu (400 - 320 BCE)).
- الأفضل أن تعيش مع الشيطان من أن تعيش مع امرأة وضيعة. (مثل يونانى)



٥٩- أنا أفكر إذًا أنا موجود

رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠)

أكثر الأقوال شهرة فى الفلسفة يبدو واضحًا بما فيه الكفاية. ولكن ماذا يعنى حقًا؟ لماذا، على سبيل المثال، كتب ديكارت "أنا أفكر إذًا أنا موجود" ولم يكتب لدى طاقة جنسية إذًا فأنا طفل" أو "أنا أضرب إذًا أنا موجود"؟

لقد ركز ديكارت على التفكير لأن وعيه بما كان يفعل سوغ له النتيجة الحاسمة وهى وجوده. أما "أنا أضرب، إذًا أنا موجود" فتصلح كمجادلة لو كنت واعيًا بأنك تقوم بالضرب. وبالطبع وعيك هنا نوع من التفكير. إذًا بالفعل حقيقة أنك تفكر أنك تضرب هى التى توضح وجودك، وليست حقيقة انخراطك فى شجار.

ومع ذلك، فبعد الوصول لتلك النتيجة، ما هى الأكثر من ذلك الذى أنت مؤهل لاستنتاجه؟ الكثير من النقاد جادلوا بأن ديكارت جرفته المشاعر؛ فقد أكد أن جدليته توضح أننا كيانات مفكرة ولسنا أجسامًا مادية. وباختصار قد تعيش العذراء فى عالم مادى، ولكنها فتاة مُتخيلة عقليًا وليست مادية.

ولكن هذا يفترض الكثير؛ كل ما توضحه مجادلة ديكارت أنه موجود فى أثناء قيامه بالتفكير، الذى هو أحد الأمور التى يقوم بها، ولا يمكن أن توضح أنه وفقًا لذلك فهو ليس ماديًا فى جوهره. ربما، مثلا، لا يستطيع أن يفكر بدون عقله المادى.

إن جذر المشكلة هو أنه لا يمكن معرفة شىء بخصوص "أنا" فى "أنا أفكر" فيما عدا حقيقة أنها موجودة فى أثناء التفكير. لا شىء يتبع من وجودها الماضى



أو المستقبلى فى أوقات أخرى أو عن طبيعتها الأصلية الآن. "أنا" تقف وحدها متأكدة من نفسها فقط فى نقطة محددة فى الزمان والمكان. التأكيد فى "أنا أفكر إذاً أنا موجود" من النوع المحدود جداً، كما أنه لا يكشف أى شيء حول طبيعتنا كمخلوقات الآن أو فى الماضى أو المستقبل.

قارن

- لم أستطع أن أجد شخصاً يفكر لدقيقتين. (سيدنى سميث Sydney Smith (1771-1845)).
- أنا أفكر بأننى أفكر، لذا أنا أفكر بأننى موجود. (أمبروز بيرس Ambrose Bierce (1842-C 1913)).
- أنا موجود، وهذا كل ما هنالك، وذلك يصيبنى بالغثيان. (سارتر Jean-Paul Sartre (1905-80)).



٦٠- اتبــع قلبــك

(واسع الانتشار-المصدر غير معروف)

يتعارك ثلاثة أعضاء ليكون أحدها هو صاحب القرار التنفيذى للفرد: العقل والقلب والحدس. وهناك من يجادل بأن الرجال لديهم مركز رابع للإرادة فى مكان أسفل قليلا، ولكننا سنتجاهل ذلك الآن. العقــل يخبرك عن سبب الاستنتاج، والقلب عن ماذا تحب أن تفعل، والحدس يملى عليك ما يجب أن تقوم به.

لا يعتقد أى إنسان عاقل بأنك فى هذه المعركة يجب عليك أن تثق فى عضو واحد؛ فالحدس لا يمكن الاعتماد عليه مثلا، ولكننا مع ذلك نعتمد عليه لنتخذ قرارات لحظية لم يستطع العقل أن يتدبرها لعدم توفر الوقت الكافى. وفى أية حالة، فإن التمييز يعتبر سطحياً. ما نطلق عليه العقل والقلب والحدس كلها فى الواقع وظائف المخ المجسَّد، وإن كانت تستخدم مناطق مختلفة. أن نتحدث عن اتباعك قلبك كما لو كان مركزاً مستقلا للرغبة يعد تضليلا. ما نفكر به يتأثر بما نشعر به، والعكس صحيح. رغبتك فى الزواج من خطيبك على سبيل المثال، تتوقف على ما تعرفينه وتعتقدين فيه بشأنه.

هناك معنى آخر نجد فيه أن القلب يجب أن يقاد لا أن يتبع. عندما نفقد الدافع فمن غير المستحسن غالباً أن ننتظر حتى نشعر بالرغبة فى المضى قدماً فيما نرغب أو نفكر فى القيام به. القيام ببداية ولو مرغمة بعض الشىء، فى الغالب يكون أفضل طريق لخلق دافع أكبر للاستمرار، وينطبق ذلك حتى على أكثر الرغبات أولية مثل الجنس. العديد من الأزواج فى العلاقات الطويلة الأمد يفقدون الرغبة التلقائية فى ممارسة الحب، وبالتالى يمتنعون عنه، ومن ثم يفقدون الشعور بالحميمية مما يهدد العلاقة



ويعرضها للخطر؛ وينصح المعالجون غالبًا بأن أفضل وسيلة هى الإقبال عليه مما يؤدى إلى عودة الرغبة سريعًا.

اتبع قلبك حل، عندما لا يتبقى لعقلك بعد استشارة الحدس والقلب، قرار واضح، ولكن عندما لا يكون هناك محل للقلب فى بعض الأحيان يتعين عليك أن تضعه فى الصورة.

قارن

- تأتى الشهية مع الأكل. (مثل إسبانى)
- للقلب أسبابه التى لا يعرف عنها العقل شيئًا. (بليز باسكال Blaise Pascal (1623-62)).
- رغبات القلب ملتوية مثل نازعات السدادات الفلينية. (أودن W. H. Auden (1907-73)).



٦١- ليس الفقير من يملك القليل، ولكن الفقير من يشتهي المزيد

(سينيكا (Seneca (3BCE-AD65)

من المريح أن نفكر بأنه لا يوجد ذلك التصنيف، بأنك إما غنى أو فقير، ولكن أسلوب التفكير هو الذى يجعل الوضع هكذا. فكر فى أولئك الذين يعيشون فى مساكن شعبية متواضعة المستوى، فمعظمنا سيقول أنهم فقراء، ولكن بما أنهم فى مأوى مناسب ويرتدون ملابس مناسبة ولديهم الطعام والرعاية الصحية الملائمة فهم على هذا النحو يعيشون فى رفاهية مقارنة بغيرهم فى العالم النامى أو الأحياء الفقيرة فى بريطانيا فى العصر الڤيكتورى. كونهم فقراء أم لا، يتوقف على نظرتك إليهم. حالتك المزاجية والعقلية، وليس وضعك المادى، هى ما يهم، وهو رأى طالما دعمته الأبحاث الحديثة فى مجال علم النفس.

على مستوى أكثر عملية، يجادل البعض بأن المهم ليس محدودية مواردك وإنما قدرتك على العيش فى حدود تلك الموارد، وكما قال السيد ميكوبر **Mr. Micawber** (إحدى شخصيات تشارلز ديكنز **Charles Dickens**) "الدخل السنوى عشرون جنيهًا، والمصروفات السنوية تسعة عشر جنيهًا وستة بنسات والنتيجة سعادة. أما أن يكون الدخل السنوى عشرون جنيهًا والمصروفات السنوية عشرون جنيهًا وستة بنسات فالنتيجة شقاء".

مثل هذا الاستشراف يستحق الإعجاب والإطراء، ومع ذلك لو تمت المصادقة عليه وتبنيه بحماسة يمكن أن ننسى أن هناك فقرًا حقيقيًا. مشكلة الجائع هو أنه لا يشتهى المزيد، ولكنه ليس لديه ما يكفى.



استبصار "سينيكا" يمكن أن يؤخذ رخصة لسحب أى اهتمام أو قلق مبرر على من يعانون من قلة نسبية فى الموارد. لم الاهتمام بأفراد يعيشون كما يقال على خط الفقر بينما هم ليسوا فقراء بالفعل؟

وبصورة أساسية ما الخطأ فى اشتهاء المزيد على أية حال؟ الرغبة فى الثروة فى حد ذاتها بلا طائل بالتأكيد، ولكن أليس بعض الجوع للحصول على المزيد لاحقًا ضروريًا لاستغلال وقتنا على الأرض أفضل استغلال؟ إن الشخص الهادئ الذى يعيش فى سعادة تامة بما لديه قد يبدو مثالا للاحتذاء، ولكن ربما يكون ثمن هدوء البال والسكينة فرصة ضائعة للإحساس بما يجعل الحياة مغامرة لا يصدقها عقل فى المقام الأول.

قارن

- إذا لم تجد ما تحب، حب ما تجد. (مثل فرنسى)
- كلما زادت معرفتك، قلت احتياجاتك. (من أمثال السكان الأصليين، أستراليا)
- لا تدع عقلك يفكر فيما ينقصك بقدر ما يفكر فيما لديك بالفعل. (ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius (121- 80)



٦٢- الإحسان يبدأ فى البيت

(أواخر القرن الرابع عشر)

فى بعض الأحيان تبقى الجمل كما هى بينما تتغير الكلمات التى تشتمل عليها؛ يمكن لمعانى الكلمات أن تتحور ببطء وعلى نحو دقيق للغاية، لدرجة أننا يمكن أن نقول الشىء نفسه لمدة طويلة ثم ينتهى بنا الحال إلى قول شىء مختلف تماماً.

لهذا نجد فى القرن الواحد والعشرين مثلا معروفًا وهو "الإحسان يبدأ فى البيت". نسمعه عندما يتردد الناس فى تقديم المال لمساعدة غيرهم فى الدول النامية من ضحايا الحروب أو الكوارث الطبيعية، وما يعنيه الناس بذلك هو أنه ينبغى عليك أن تهتم بالأقربين أولا ثم بالبعيدين عنك بعد ذلك.

إنه مبدأ يمكن الدفاع عنه، ولكنه ارتبط بالمثل الخطأ؛ فالمعنى الحديث لكلمة "الإحسان" يتضمن العطاء الإرادى للمحتاج. تقديم كيس من الأرز لشخص بقى على قيد الحياة بعد زلزال خارج البلاد يعد إحسانًا بالطبع. بينما طهى الأرز لأطفالك لا يعتبر كذلك، فالإحسان لا يمكن أن يبدأ إلا بعد بوابة حديقة المنزل على الأقل، لأنه لا يتعلق برعاية الأقربين.

عندما تم تداول الجملة ظلت كلمة إحسان تعنى شيئًا قريبًا من الجذر اللاتينى **Caritas**، وتترجم غالبًا على أنها "الحب المسيحى"، إنها العطف على الآخرين الذى لا علاقة له بالعواطف المشبوبة أو الواجب العائلى.

أما القول بأن الحب المسيحى يبدأ فى البيت فيعنى أننا لا يمكن أن نتمنى أن نكون أشخاصًا جيدين عطوفين، إذا لم نكن رحماء مع من يشاركوننا الحياة كل يوم.



من المحتمل أن يكون السامرى الطيب قد عاد إلى بيته ليضرب زوجته، بينما كان السارق الذى ترك ضحيته تواجه الموت رجلا محبًا لأسرته، ولكن لم يكن أىّ منهما محسنًا.

الكلمة الأساسية هنا ليست "الإحسان" ولا "البيت" وإنما "يبدأ". إن المقصد وراء هذا المثل هو أن الإحسان لا يبقى حبيسًا داخل جدران منازلنا، فهو يبدأ فى البيت كى يمتد خارجه بعد ذلك. بغض النظر عن كون هذا المثل تبريرًا لرفض تقديم المساعدة للغرباء وراء البحار، فهو بالفعل مخطط لكيف يمكن أن نصبح أكثر ميلا بطبيعتنا لأن نقوم بذلك فى أحوال كثيرة.

قــارن

- يسير ابن الإسكافى حافيًا دائمًا. (منتصف القرن السادس عشر)
- احتفظ بالطُعم لطيورك. (مثل إسكتلندى، منتصف الثامن عشر)
- الإحسان بارد القلب وسط جمع من الممتلكات، والأغنياء متكالبون حتى على الفتات. (كريستوفر سمارت (Christopher Smart (1722-71



٦٣- الطريق للجحيم مفروش بالنوايا الحسنة

صمويل چونسون Samuel Johnson (١٧٠٩-١٧٨٥)[٧]

لا تدع الناس يتداولون القول بأن الإنسانية لا تتقدم: منذ أيام چونسون تمكنا من تمهيد الطريق الذى يوصل إلى الجحيم.

أيا كانت تنويعة هذا القول التى تختارها، فإن النوايا الحسنة تتعرض لضغط قاسٍ؛ فعندما يتعهد الناس القضاء على الفقر وخلق نظام رعاية صحية عادل ونشر السلام فى الشرق الأوسط أو الإقدام على اتخاذ خطوات جادة لحماية البيئة، نجد أصواتًا ظلامية تهمس بخصوص ما قد تسببه النوايا الحسنة من ضرر غير مقصود. عندما يرفض العالم بعناد أن يتطور أو يحسن من أوضاعه بين عشية وضحاها، فإنك تجد تلك الأصوات تتعالى صيحاتها.

بينما التفاؤل الحالم أو المفرط فى تفاؤله بأن النتائج الجيدة ينبغى أن تنبع من قلب حسن النية يعد تفاؤلا خطراً بلا شك، كذلك فإن الاستخفاف الزائد عن الحد بالنوايا الطيبة ليس أفضل حالا؛ ومع ذلك يمكن لنا التأكد من أن الجنة ليست مفروشة بالنوايا الخبيثة. الرغبة فى عمل ما هو صحيح وليس خطأ، هى على الأقل بداية لا يمكن أن يحدث شىء بدونها. إن غاية چونسون بالتأكيد لم تكن أن النوايا الطيبة تؤدى دومًا إلى كارثة، بل إنها يمكن أن تؤدى إليها فحسب.

---

(7) As quoted in James Boswell's Life of Johnson (1791).



ولكن كلماته تؤخذ فى الغالب على أنها تبرير للطمأنينة واليأس. كف عن محاولة القيام بأى عمل جيد أو جعل العالم مكاناً أفضل لأن جهودك ستؤدى بالأمور إلى مسار غير محمود. أفضل ما يمكنك القيام به هو أن نترك العالم يذهب للجحيم فى عربة تدفع باليد، ويكفيك التذمر أمام التلفاز. ليست تلك نصيحة رجل قال أيضاً "يتصف بالعظمة من لا يتحلى بالفضيلة". النوايا الطيبة فى حد ذاتها لا تكفى، ولكن حالنا أسوأ بدونها.

قارن

- الجحيم ملآن بالنوايا الحسنة. (مثل برتغالى)
- لا توجد إمكانية للتفكير فى أى شىء على الإطلاق فى العالم أو حتى خارجه، يمكن أن ينظر إليها باعتبارها جيدة بدون شروط، فيما عدا الإرادة النبيلة. (إيمانويل كانط (1804 - 1724) Immanuel Kant)
- كل الفن السيئ نتيجة للنوايا الطيبة. أوسكار وايلد Oscar Wilde (١٨٥٤-١٩٠٠).



٦٤- هناك توقيت مناسب لكل شىء

(العهد القديم ٣ :١)

تبعث الأمثال برسائل مختلطة عن التوقيت. الطائر المبكر يصطاد الدودة، ولكن من يضحك أخيراً يضحك طويلا. من يتردد يضل طريقه، ولكن كل الأشياء تأتى لمن ينتظرون. إذًا ما العمل؟ أو بالأحرى ماذا نحن فاعلون؟

يخبرنا الإنجيل أن الأمر يتوقف على أشياء عدة، فكل شىء له موسم أو توقيت مناسب، أفضل وقت لاصطياد الدود هو الصباح الباكر، ومن الأفضل الضحك أخيراً عن الضحك أولا. الطبيعة لديها تقويمها وجدولها الخاص وعلينا أن ندرسه.

وهذا بالتأكيد يُقصى العديد من التناقضات الواضحة الموجودة فى أقوال تتعلق بالزمن أو التوقيت. ويمكن للباقى أن يتلاشى بعد الانتباه الدقيق. على سبيل المثال، هناك فرق كبير بين التردد والانتظار؛ فالصياد، على سبيل المثال، يجب أن يكون متأهبًا للانتظار حتى تحين اللحظة، ويترك التردد وينال مراده. التردد هو الفشل فى القيام بالعمل، بينما الانتظار هو التحضير للقيام به.

لا يزال هناك شىء غير مرض بخصوص النصيحة بأن لكل شىء أوانًا. لو أنك سألت شخصًا عن الوقت الذى ينبغى عليه أن يقوم فيه بعمل ما، فالإجابة "فى الوقت المناسب" لا تعتبر نصيحة مفيدة. يمكنك كذلك أن تنصح شخصًا باختيار أفضل طبق فى القائمة أو تجربة مكان جيد لعطلة السنة.

هناك أيضًا مجازفة التقيد بالأوقات المعتادة أكثر من حاجتك لذلك. على سبيل المثال، هل الصواب أن نشرب البورت قبل الأكل أم بعده؟ هل هناك عمر ينبغى عنده



الفرد أن يكون قد أقدم على تجارب حياتية وإنجازات كان قد وضعها فى قائمة؟ فى الحديقة، يجب أن تتعلم كيف تتماشى مع المواسم، ولكن فى كثير من مناحى الحياة نحن أحرار فى أن نسير على جدول خاص بنا.

ربما يكون هناك سبب وراء وجود عدة أمثلة عن الوقت والتوقيت. كل موقف يتطلب منا الحكم عند اللحظة المناسبة، ولا يقدم لنا أيًا من تلك الأقوال المتنوعة الإجابة الصحيحة، إلا أننا عندما نصل إليها تعطينا وسائل متنوعة للإعلان عن الحكم الذى توصلنا إليه.

قارن

- من يستيقظ مبكرًا يصطد اليرقة. (مثل إسبانى)
- من ينم لا يصطاد أى سمك. (مثل إيطالى)
- اليوم العاصف ليس هو يوم تسقيف سطح البيت بالقش. (مثل أيرلندى)



٦٥- الحب لا يشترى

(بول ماكارتنى (-1942 Paul McCartney)

نوع الحب الوحيد الذى يباع وبصورة حرفية هو النوع التعبيرى الذى لا يكف المطربون عن التغنى به، الذى غنى له - وعن التمتع به - الفريق الموسيقى أيروسميث Aerosmith فى أكثر الأماكن رومانسية ألا وهو المصعد. فالحب الحقيقى، أيًا ما كان، لا يقدر بثمن.

هل يعنى ذلك أن الثروة لا تأثير لها بالمرة على الحب وازدهاره؟ من السهل التفكير بأن الأشخاص الآخرين، الأكثر تفاهة منا، هم من يسمحون للاعتبارات المادية أن تؤثر فى اختيار شريك الحياة، ولكن هناك الكثير من الأدلة التى توحى بذلك سواء بوعى أم لا؛ فالمال يدخل فى المعادلة بكل تأكيد.

المثال التقليدى على ذلك هو المليونير العجوز غير الجذاب وزوجته الشابة الرائعة، كأسه أو تذكار انتصاره. فى تلك الشراكات غالبًا ما يوجه النقد للرجال على تفضيلهم السطحى للجمال والشباب على النضج والعقل، ولكن النساء الشابات هن من يستحقن أن ينعتن بالسطحية كذلك إذا وجدن الجاذبية فى القوة والمال.

لا يمكن لهذا النموذج أن يطرح جانبًا على أنه صفة من صفات الأثرياء، فعلى سبيل المثال، ترى دراسات متنوعة أن العوامل الاقتصادية قد تسهم فى الطلاق. لو وجد رجل نفسه عاطلا عن العمل لأول مرة فى حياته، أو ذلك الذى تحصل زوجته على دخل جيد من المحتمل أن يجد نفسه أعزب مرة أخرى، على خلاف حال غيره الذى



يكون العائل الأساسى للأسرة. هؤلاء الرجال الذين يعتقدون أن اقتناء السيارة المناسبة أو الملابس أو الساعة سيكون له تأثير على نظرة النساء لهم ليسوا مخطئين بشكل كلى.

إن الفكرة التى تسبب إشكالية هى أنه على الرغم من أن الكثيرين منا ليسوا ماديين بصورة واضحة ويفكرون عن وعى فى "يقود سيارة أودى Audi، يمكن أن يكون فرصة لزوج جيد"، فالقليل منا هم الأنقياء فى دوافعهم فى أن القوة والثروة والجمال لا تأثير لها فى اختيار الشريك. وإذا أردنا القول بأن أى شخص يتأثر بتلك العوامل لا يمكن أن يكون محبًا حقيقيًا، لكان الحب أندر مما نظن. لا يمكن للمال أن يشترى الحب، ولكن من أسف أنه يمكن أن يقلب موازين الأمور لصالحك.

قارن

- اشتر الحب بالحب، واشتر بالمال أى شىء آخر. (مثل إسبانى)
- قد يقوم الحب بالكثير، ولكن المال يقوم بكل شىء. (مثل فرنسى)
- عندما يدخل الفقر من الباب، يهرب الحب من النافذة. (مثل يونانى)



٦٦- الفضيلة جزاء الفضيلة

(القرن السادس عشر)

لماذا يجب علينا أن نكون صالحين؟ "لأننى أقول ذلك"، قد تكون إجابة والد يرغب فى تقديمها لأولاده المتشككين، وقد يعضدها كذلك بقوله "لأنك لن تأخذ آيس كريم إن لم تكن كذلك"، فى حالة أن الإجابة الأولى لم تؤد الغرض.

قد يكون لرجال الدين إجابات أكثر حصافة، ولكنها تبدو للكثيرين وكأن الله يتدرب على الكلمات نفسها. لو "لأننى أقول ذلك" لا تؤثر فيك عندما يتعلق الأمر بصوت الألوهية إذًا "لأننى سأدخلك النار إذا لم تفعل ذلك" قد تجعلك تفكر مليًا فى الأمر.

من الواضح أن العصا والجزرة ليست أسبابًا كافية أو مُرضية لفعل ما هو صحيح، ولكن ما الدوافع الأخرى التى قد توجد؟ ربما يجب أن نسلك سلوكًا قويمًا لأن ذلك يكون جيداً بالنسبة لنا، ولكن المصلحة الشخصية المستنيرة ليست كالفضيلة التى تتطلب منا فى بعض الأحيان أن نضع مصالحنا فى المرتبة الثانية.

لذا يبدو أمرًا لا طائل من ورائه أن نبرر الأمور الإلزامية الأخلاقية باعتبارها مكافآت تمنح لمن يمارس الفضيلة إذا ما كان مصدرها السلطة أو الله أو مباشرة من الأفعال الصالحة نفسها. وبناء عليه، هل يجب أن تكون الفضيلة جزاء الفضيلة؟

يتعلق هذا الموضوع بآخر وهو أن تأخذ الكعكة وتأكلها فى الوقت ذاته. وذلك لأنه يقترح أنه لا يجب أن نتمسك بالفضيلة فى مقابل أى مكاسب قد تقدمها لنا، ولكن فى الوقت نفسه نجد هناك فائدة فى أن نتحلى بالفضيلة فى حد ذاتها، وهى أن نكون



صالحين فحسب. وحتى تكون الفضيلة هى المكافأة على الفضيلة يجب أن يكون هناك مكسب ما من ورائها.

تبدو تلك حقيقة عن الأخلاق لا يمكن الفرار منها، ولكنها مع ذلك لا تقلل من شأن الأخلاق لأننا قادرون على إدراك أن بعض المكافآت يكون أكثر أهمية حتى من صالحنا الشخصى. أن تهب حياتك فى سبيل الآخر، على سبيل المثال، إذا كنت تعتقد أن الجائزة تستحق الخسارة؛ لذا يجب أن يكون للفضيلة مكافأة خارج إطار الفضيلة ذاتها، كما يجب ألا تذهب لمن يتمتع بالفضيلة فقط.

قـارن

- يعش طويلا من يعش صالحًا. (منتصف القرن السادس عشر)
- من يتكئ على شجرة صالحة يغطه ظلها الطيب. (مثل إسبانى)
- كثير من الناس تشبع الفضيلة غرورهم أكثر من أولئك الذين تنفرهم الرذيلة. (أر. إس. سرتيس (R. S. Surtees (1803-64)



٦٧- الضمير يجعلنا كلنا جبناء

(وليم شكسبير William Shakespeare (1564-1616))

يتعرض الضمير للشك فى الغرب الحديث. صحيح أنه لا يزال يُستدعى كثيرًا لتبرير الأحاسيس الباطنية الأخلاقية التى ليس لدينا القدرة أو الرغبة فى الدفاع عنها. ولكنه فى الغالب أمر يحارَب من أجله، حيث إن الضمير هو مصدر الشعور بالذنب الذى هو أكثر المشاعر سلبية.

الشعور بالذنب شعور عفى عليه الزمن، وذلك لأن معانى أخرى ارتبطت به وأدت إلى تشويه صورته. وتحديداً، أدت الأنظمة الاجتماعية والدينية إلى شعور الناس بالذنب بصورة غير صحيحة حيال تصرفاتهم وأفعالهم الجنسية. كذلك تجبر الكثيرات من النساء على الشعور بالذنب إما لعدم قضائهم وقتًا كافيًا مع الأطفال أو لفشلهم فى بناء مستقبل مهنى ناجح.

ولكن لأن الشعور بالذنب غالبًا ما يوضع فى غير محله، فإن ذلك لا يعنى أن نلقى باللائمة كلها على الشعور بالذنب نفسه، فقد نستنكر الحب على أساس أن كثيراً من الناس يقعون فى حب ما لا يجب أن يحبوه.

وبالمثل ينبغى لنا أن نشك فى الاتهام المقام ضد الضمير على أساس أنه يجعلنا جبناء؛ فالفكرة الشائعة هنا هى أن الضمير هو الكابح الذى يمنعنا من القيام بما يجب علينا أن نقوم به إذا تمتعنا بدرجة كافية من الجرأة. فى حالة "هاملت" كان الانتقام لمقتل أبيه، وبالنسبة لشخص آخر اليوم قد يكون هو التصرف بناء على عاطفة جنسية أو الإمساك بفرصة لتقديم مصالح شخصية على حساب منافس أو زميل.



لكن عندما نسمى تلك الوقفات جبنًا نصبح وكأننا نستجدى السؤال. فى بعض الأحيان يكون من الصحة كبح جماح أنفسنا، ولكن التحكم فى الذات ليس كمثل القمع الباثولوچى.

على أية حال، فإن اقتباس شكسبير لا يساعد الموقف ضد الضمير. ما أطلق عليه هاملت الضمير فى مناجاته الشهيرة " أكون أو لا أكون" لم يكن هو الأنا العليا الأخلاقية الحديثة، وإنما أفكارنا الباطنية بصورة عامة؛ ولذا نجد شكسبير فى مسرحية "الملك هنرى الخامس" يقول هذه الكلمات على لسان البطل الذى سميت المسرحية باسمه "سأكشف عما يجول فى ضميرى عن الملك: أعتقد أنه يجب ألا يكون إلا حيث هو" هذا هو ضمير هاملت. قد يجعلنا جبناء بالفعل، ولكن ليس لأنه يذكرنا بواجباتنا الأخلاقية، وإنما لأنه يكشف عن مخاوفنا وأمراضنا العصابية اللاعقلانية وربما الأنانية فى بعض الأحيان.

قارن

- القلب الضعيف لا يفوز بامرأة جميلة. (منتصف القرن السادس عشر)
- يقابل الضمير بإعجاب، ولكنه مرتبط بالجبناء. (مثل أمريكى، منتصف القرن العشرين)
- الضمير مهذب، ولكنه صامت أمام من يصم آذانه. (صمويل بطلر Samuel Butler (1835-1902))



٦٨- طبق يمكن أن يؤكل باردًا

(أواخر القرن التاسع عشر)

سل أى شخص عن تكملة المثل "الانتقام طبق..." وسيقولون جميعهم تقريبًا "الأفضل أن يقدم باردًا"، ومتابعة الصورة البلاغية القائمة على الطهى تجعل الفرق بين هذا الرد وبين الصيغة الأصلية مهمًا لدرجة كبيرة.

تناول الجاسپاشو Gazpacho(*) باردًا يعطيك الفرصة للاستمتاع بالحساء الإسبانى فى أفضل صورة، ولكن أكل طبق من المكرونة الباردة غير الطازجة يجنبنا الإهدار وعناء إعادة التسخين. القليلون فقط يوافقون على أن المكرونة الإسباجتى مع صلصة البولونيز الأفضل أن تقدم باردة، حتى إن كان يمكن أن تكون كذلك.

وهذا يفسح مجالا للسؤال الجاد: هل الانتقام مثل حساء الجاسپاشو أم مكرونة الإسباجتى؟ وفقًا للمثل الأصلى تجد الإجابة فى مدينة بولونيا (إيطاليا)، وليس فى برشلونة (إسبانيا).

لا يجب للانتقام أن يتم فى الحال حتى وإن كان ضروريًا، يمكنه الانتظار. أما أن يكون الانتقام شيئًا يجب أن تستمتع به، فذلك سؤال مفتوح.

الصيغة الحديثة للمثل على أية حال ترى الانتقام مثل حساء الجاسپاشو أو حتى مثل كأس كبيرة من الآيس كريم تؤكل بنهم بقدر الإمكان.

(*) Gazpacho جاسپاشو حساء خضروات بارد مشهور فى إسبانيا، يؤكل فى شهور الصيف خاصة لما له من صفات منعشة (المترجمة).



هذا تحول سادى، فقد تحول الانتقام من عمل قذر، ولكن ضرورى فى بعض الأحيان إلى شىء نخطط له وندرجه فى جدول لتعظيم قدر المتعة منه. التحول من "يمكن" إلى "الأفضل" يقلل من احتمالية أن نرى الانتقام، وكأنه غير مرغوب فيه. قد نتساءل حول ما إذا كانت المكرونة الباردة تستحق أن تقدم فى الأساس ولكن من غير المحتمل أن نسأل السؤال نفسه بخصوص عجينة بسكوت الشيكولاتة بين وچيرى(*) الأشياء التى من الأفضل أن تقدم باردة، تقدم كذلك. لكنها، وكما توضح تلك الأعمال الروائية، رغبة يمكن أن تظهر الأسوأ فينا وتؤدى إلى سقوطنا؛ لذا من الأفضل التفكير فى الانتقام باعتباره شيئًا لا يثير الشهية يمكن أن يقدم باردًا أفضل من أن يكون شيئًا يسيل له اللعاب.

قـارن

- لا تشط، كن معتدلا. (أواخر القرن العشرين)

- الانتقام دائمًا متعة العقل التافه والضعيف والصغير. (چوڤينال Juvenal (60-130).

- الرجل الذى يتدارس الانتقام يحافظ على جراحة طازجة. (فرانسيس بيكون (Francis Beacon (1561-1626)

(*) بين وچيرى Ben & Jery's شركة أيس كريم أمريكية شهيرة. (المترجمة)



١٩- الحياة المليئة بالأخطاء ليست جديرة بالتقدير فحسب.
وإنما هى أكثر فائدة من تلك التى لا يفعل فيها الإنسان شيئًا

(چورچ برنارد شو George Bernard Shaw (1856-1950))

تعد كلمات شو مطمئنة عندما نتصفح الدليل الخاص بحوادثنا ومصائبنا المؤسفة. أى أن كثيرين لا يرون أن الحرب على العراق كانت خطأ قاتلا، بل ويتحدثون عن حياة بوش وبلير كأنها تستحق الإكبار ولها فوائد عدة نتيجة لقرار الحرب. كذلك لا نسمع الكثير من الإطراء على الخطأ عندما تخلق إخفاقات شخص ما الفرصة لمقاضاة الإهمال.

التباين بين تسامحنا مع إخفاقاتنا وعدم تساهلنا مع إخفاقات غيرنا ليس عرضاً للانحيازات الشخصية فقط، ولكنه يعكس كذلك الحقائق الصادقة والمتصارعة عن دور ارتكاب الأخطاء فى الحياة الجيدة.

النقطة الأساسية هنا هى أن "شو" لا يثنى على الخطأ فى حد ذاته. ارتكاب الأخطاء أعلى شأنًا من القعود عن العمل وليس عمل ما هو صحيح. البشر غير معصومين من الخطأ وهذا يعنى أننا فى سبيل عملنا قد نخفق فى بعض الأحيان. وحيث إن الحياة التى تمضى بلا عمل لا تستحق أن تعاش، فنحن مجبرون على استنتاج أن الحياة المليئة بالأخطاء تنتصر على حياة القعود عن العمل.

من الواضح أنه إذا كان لدينا شخصان عاشا حياة نشطة بنفس القدر وارتكب الأول أخطاء أقل من الثانى، فإن الأول يكون قد نجح فى عمله أكثر من الثانى،



وهذا بعد تكافؤ باقى العناصر الأخرى. لو أن ارتكاب الأخطاء أفضل من القيام باختيارات صحيحة، لأصبحت الأخطاء، على نحو متناقض، هى الخيارات الصحيحة بعد كل ذلك.

لذا هناك ذلك التوتر بين أن تكون جاهزًا لتقبل حتمية وقوع الأخطاء كشرط استباقى للعمل والكفاح لتجنب الأخطاء كلما أمكن ذلك. حين نفكر فى الآخرين نميل بصورة غير عادلة، إلى أن نمنح تجنب الأخطاء الأولوية القصوى. ولكن لدينا دافع أن نكون أكثر تسامحًا عندما تكون الأخطاء أخطاءنا، قد يكون القبول بحتمية أخطائنا أفضل طريقة لتحملها.

قارن

- كل ابن آدم خطاء. (أواخر القرن السادس عشر)
- فى حال فشل كل شىء، يمكن تحقيق الخلود من خلال خطأ مذهل. (جالبريث (G. K. Galbraith (1908 - 2006)
- إذا لم تنجح فى أمر ما فلا يهم مقدار الفشل، وذلك لأنك فشلت فى المقام الأول. (أوائل القرن السابع عشر)



٧٠- الإنسان مقياس كل شىء

Protagoras (C. 490-C420 BCE) بروتاجورس

فى منافسة بين إنسانى ملحد مؤمن بقضايا الإنسان ومؤمن متدين للوصول إلى الذات العليا لا تجد أمامك الصورة واضحة فى الحال حتى تتمكن من تحديد موقفك ومساندة أيهما لتحقيق الفوز. نجد المؤمن، بمسحة ورع فى حديثه عن الإنسانية فى وجه الألغاز الإلهية، واثقًا على نحو لافت للنظر بمعرفته عن طبيعة خالقنا وما يطلبه منا، مع أن الادعاء بمعرفة ولو جزء من إرادة الله بصورة أفضل من الآخرين لا يعد تواضعًا.

ولكن بالنسبة للأغلبية، يبدو المؤمن بقضايا الإنسان أكثر غطرسة، لأنه يجادل من منطلق أننا مخلوقات صغيرة من القرود الحليقة المثيرة للشفقة، ولكن لدينا القدرة على فهم العالم من حولنا، وخَلق قيم أخلاقية وإعطاء حياتنا معنى. إن إنكار أى اعتماد على قوة عليا، عندما يكون الكثيرون منا غير قادرين على عمل صغير مثل تجميع منضدة للقهوة على نحو صحيح، يبدو وكأنه التعريف المباشر للعجرفة.

إن عبارة أن "الإنسان مقياس كل شىء" تبدو قمة هذه الغطرسة. هل نحن على ذلك القدر من الأهمية كى يقاس كل شىء موجود فى هذا العالم وفقًا لمعاييرنا وقيمنا وأحكامنا نحن؟

ولكن ذلك هو السبيل الوحيد لفهم دورنا كمقياس عام. بدلا من أن نفترض أى أهمية للإنسانية، يجب علينا أن نبدأ بقبول عجزنا. نحن مقياس كل شىء لأننا ببساطة



غير قادرين على الوصول إلى أى مقياس آخر. ليس لدينا سبيل للوصول إلى عقل الألوهية، كما لا يمكننا تبنى رؤية الله. لقد حُكم علينا بأن نرى العالم من منظور إنسانى لا غير. لا يمكن أن نتخيل كيف يبدو العالم للخفاش، دع عنك الذات الإلهية.

إذاً، ليس الإنسان مقياس كل شىء لأنه متعجرف وإنما لأن ما من بديل آخر غير ذلك. حتى المؤمن يجب أن يتفق مع ذلك، لأن الشمبانزى المكتمل النمو هو الذى يقرر أى دين يقدم الإرشاد الحقيقى للحياة، وليس الله.

قارن

- لا يخرج أى شىء مستقيم من خشب أشجار الإنسانية الملتوى. (إيمانويل كانط (Immanuel Kant (1724-1804)

- الإله الأمين هو أكثر أعمال الإنسان نبلا. (روبرت إنجرسول Robert G. Ingersoll (1833-1900))

- القيام بالقياس أسهل بكثير من معرفة ما تقيس. (سوليڤان J. W. N. Sullivan (1886-1937).



٧١- يمكنك اقتياد الحصان إلى الماء ولكنك لا تستطيع أن تجعله يشرب

(أواخر القرن العشرين)

مقولة دورثى باركر Dorothy Parker "يمكنك أن تقود فتاة ليل للثقافة، ولكنك لن تستطيع أن تجعلها تفكر" تحتوى على الكثير من الحقيقة رغم أن فتيات الليل يُنتقدن بصورة غير عادلة. لقد أدرك الناس، ولسنوات عدة، أن التعليم هو أكثر وسيلة تأثيراً عندما تريد أن تتعلم. "يجب أن يتشرب عقلك المعرفة لا أن يُحشى بها حشواً" كما صاغها الفيزيائى ڤيكتور ڤايسكوف Victor Weisskopf.

ومع ذلك فهذا ليس كالقول بأنك كى تتعلم لابد لك من أن تريد أن تتكلم. ستشهد أجيال من أطفال المدارس، لم يكن لديها الرغبة فى التعليم، أنها بالفعل تعلمت الكثير من فصول لم تكن ترغب فى حضورها. فى مواقف كتلك لا يكون نقل المعلومات فعالا بدرجة كبيرة ولكنه يستمر على الرغم من ذلك.

الفشل فى تقدير الآليات الدقيقة للشد والجذب فى العملية التعليمية تقديراً كافياً أدى على نحو جدلى ببعض المتحمسين من ذوى النوايا الحسنة إلى ترك الكثير لعملية الشد. من وقت ليس ببعيد، على سبيل المثال، كنت أعرف مدرساً تحت التدريب يتلقى تعليمه فى كلية راقية لتدريب المدرسين، وكانوا يعلمونه هناك أن أفضل طريقة للتعامل مع التلاميذ من ذوى القدرات المختلفة، هى "التمييز القائم على أساس المحصلة أو النتيجة". ذلك يعنى أنه بدلا من أن تعطى الطلبة الأكثر قدرة مهام أكثر صعوبة، تعطيهم مهام كتلك التى تعطى لمن هم أقل منهم قدرة. وتنتظر منهم ببساطة مستوى مرتفع من النتيجة.



لا تحتاج أن تكون مدافعًا عن عودة نظام سن الحادية عشرة وما فوق لتدرك أن هذا فيه تضليل بصورة فادحة. ليس من الطبيعة البشرية أن تبذل مجهوداً أكثر من الضرورى؛ لذا يحتاج الطلبة الأذكياء أن توسع آفاقهم أكثر لو أن لهم أن يصلوا لتحقيق كل إمكاناتهم. إن السبيل إلى استخلاص مستوى أعلى من الاستجابة غالبًا ما يكون عن طريق تقديم سؤال يتحدى قدراتهم، والسبب فى إحاطة العقل بأشياء معينة هو التأكد من أنه مستمر فى تشرب ما يقدم له من معلومات، ولا يترك له المجال ليتثاءب فى استسلام.

بوجه عام، هناك أمور كثيرة يمكن للحصان على غير إرادته أن يقوم بها ومن يرغبون عن ذلك يمكن للكز وللتشجيع والتملق والاستمالة أن تؤدى إلى النتيجة المرغوبة. القبول بفكرة أن الحصان لن يقدم على الشرب إذا لم تتوافر لديه الإرادة هى شعار الانهزامى وليس الواقعى.

قارن

- يمكن أن تقدم النصيحة لشخص ما، ولكنك لا يمكنك أن تجعله يتبعها. (مثل إسبانى)
- اطرق باب الأصم كما تشاء. (مثل يونانى)
- اذهب إلى الميدان واسأل النصيحة، عد إلى البيت وافعل ما يترائى لك. (مثل إيطالى)



٧٢- ليست الكثرة على صواب دائمًا

قد يقدم الكثير من الناس على
خطأ فادح تمامًا مثل القلة منهم

John Dryden (1631 - 1700)

قد يعزى الخاسرون فى أى انتخابات أنفسهم بالقول بأن الأغلبية ليست دائمًا على حق، وقد يذهب البعض لما هو أبعد من ذلك ويتفقون مع د. ستوكمان Dr. Stockmann فى عمل إبسن "عدو الشعب"، والذى أعلن أن "الأغلبية لا حق معها"، وذلك لأن "الأغبياء من الناس يشكلون الأغلبية المطلقة الساحقة فى العالم أجمع".

حتى أبطال الديمقراطية لا يدافعون عنها عادة عن طريق مناشدة حكمة الجماهير، ولكن من خلال ترديد رأى ونستون تشرشل بأن "الديمقراطية هى أسوأ أشكال الحكم ما عدا تلك الأشكال المجربة من وقت لآخر".

ترتكز تلك السخرية على فرضية أن الديمقراطية قائمة على المقدمة المنطقية التى تفترض قدرة الشعب على الاختيار بحكمة، ولكن ما الحال لو كان هذا الفرض خطأ؟ فأكثر الأغانى والكتب والأفلام وأنواع البيتزا شهرة هى أبعد ما تكون عن الأفضل.

يمكن أن يثور جدل حول أن هدف الديمقراطية هو تقديم نوع الحكم الذى يفضله الناس، وليس النوع الذى هو أفضل بالضرورة بالنسبة لهم. يحتاج جمهور الناخبين أن يكون لديه القدرة على ارتكاب الأخطاء لو أن لهم أن ينالوا الحرية الكاملة فى تحديد المصير. ما يهم ليس هو أن يختار الشعب اختيارًا جيدًا، ولكن عملية الاختيار فى حد ذاتها هى ما يهم.



حتى لو كنا نرغب فى الحكم الرشيد، فى الديمقراطيات الغربية لا يُستدعى جمهور الناخبين وقت الحاجة إلى اتخاذ قرارات بشأن سن القوانين أو حول أوجه إنفاق الموارد الاقتصادية للأمة، فهم موكل إليهم مهمة أكثر بساطة وهى الاختيار العاقل لأشخاص أذكياء قادرين على اتخاذ القرارات الصحيحة نيابة عنهم.

ولكن أهم عمل يقوم به جمهور الناخبين هو مساءلة السياسيين. فعلى الرغم من السخرية المنتشرة التى يتعرضون لها، عادة ما يطرد منهم أولئك الذين يسيئون استخدام نفوذهم على نحو فج أو من لا يقدمون شيئًا لناخبيهم؛ لذا يمثل التهديد بالرفض فى صندوق الانتخابات دافعًا للسياسيين فى البلاد الديمقراطية للعمل من أجلنا، وليس من أجل أنفسهم.

لا تحتاج الديمقراطية أن ترتكز على الفرضية الخاطئة بأن الأغلبية دائمًا على صواب، ولكن على المقدمة المنطقية الجديرة بالثقة، والتى مؤداها أن الديمقراطية تساعد على أن تكون القلة التى تحكم فى خدمة الكثرة.

قارن

- الأعداد الكبيرة توفر الأمان. (أواخر القرن السابع عشر)
- أربع عيون ترى أفضل من اثنتين. (مثل ألمانى)
- الديمقراطية تستبدل انتخاب الكثرة عديمة الكفاءة بالقلة الفاسدة. (چورچ برناردشو George Bernard Shaw (1856-1950))



٧٣- المياه الساكنة عميقة

(أوائل القرن الخامس عشر)

كانت إحدى مدرساتى فى المدرسة الابتدائية مغرمة بأن تقول لنا "الأوانى الفارغة تصدر ضجيجًا عاليًا"، وكانت كلمة Vessel(*) بالنسبة لى تعنى مركبًا؛ لذا وجدت ما تقوله محيرًا، ولكننى فهمت أنها كانت تريدنا أن نلتزم الصمت.

ظهر هذا القول فى القرن الخامس عشر، مثل القول "المياه الساكنة عميقة"، أى حوالى أربعمائة سنة قبل أن يدعى فرويد أنه "اكتشف" العقل الباطن. ففكرة أن أعماق الشخصية يمكن أن تقرأ من السطح كانت بالفعل موضوعًا للعديد من الأقوال المعروفة، كذلك فكرة أن الشخصية الخارجية يمكن أن تختلف عن تلك الداخلية.

وعلى الرغم من ذلك نجد أن أكثر الأشكال الأولية فى علم النفس تقول إن العلاقات بين العمق والسطح يمكن أن تكون قوانين عامة فقد تكون الحياة الساكنة عميقة، ولكن البركة الصغيرة الضحلة يمكن ألا تصدر أمواجًا فى حال تركها وشأنها.

نعرف جميعًا ذلك، إلا أن هناك ميلا لتطبيق هذه الحكمة بصورة مبالغ فيها؛ فيظهر هذا الإيهام بالعمق فى أشكال عدة.

على سبيل المثال، عندما يقدم شخص نفسه على أنه صفحة بيضاء؛ فاحتمالية أن نقوم بملء الفراغات بأنفسنا تكون أكبر من احتمالية أن نفترض أن تلك الفراغات خالية دائمًا. الشعور أن هناك الكثير الذى يعتمل فى الأعماق أكثر مما يظهر على

(*) Vessel كلمة لها معان عدة من بينها الوعاء أو المركب (المترجمة).



السطح بالنسبة لأى شخص هادئ، هو شعور مستمر، حتى بعد أن تتوفر لدينا الأدلة الكافية لاستنتاج أنه ربما لا يوجد أكثر من ذلك فى الحقيقة.

انطباع العمق أن يُخلق من خلال تعبيرات تلغرافية مبهمة لا تعنى شيئًا فى الحقيقة، ولكنها توحى بأن هناك حقائق أعمق لم تقل. هذا النوع من الإيهام الفكرى عولج بسخرية رائعة فى فيلم "أن أكون هناك" لهال آشبى Hal Ashby من بطولة پيتر سيلرز Peter Sellers الذى يقوم فيه بدور بستانى بسيط فى تفكيره يُدعى صدفة. إسهامات صدفة المختصرة فى الحوار محدودة، فهى عبارة عن تعليقات حرفية قصيرة على الحدائق مثل "ما دام أن الجذور لم تقطع، فكل شيء على ما يرام" و"للنمو مواسم". هذه التعليقات تؤخذ على أنها حقائق مجازية ذات مغزى عميق، ويعامل صدفة على أنه حكيم رشيد.

يمكن للمغزى أن يقدم فى هذه الجملة التى تعتبر حرفية ومجازية فى الوقت نفسه. إذا كنت لا تستطيع أن ترى القاع فذلك لا يعنى بالضرورة أن البئر عميقة.

قارن

- إنها الخنازير الهادئة التى تأكل الحَب. (مثل أيرلندى)
- البراميل الخاوية تصدر أعلى الأصوات. (مثل هولندى)
- العربة الفارغة هى الأعلى خشخشة. (مثل كورى)



٧٤- يجوب المرء حول العالم بحثًا عما يحتاج، ويعود إلى بلده ليجده هناك

چورج مور George Moore (١٨٥٢-١٩٣٣)

قد نعمل بجد حتى نحصل على إجازاتنا ونتطلع إليها ونضعها فى مكانة خاصة فى جدول أولويات السنة، ولكن الكثير من الحكماء لا ينظرون إلى السفر نظرة إيجابية. على سبيل المثال، فى عام ١٩٩٢، قلب تشستـرتون G. K. Chesterton كل موازين الحكمة التقليدية عندما كتب أن "السفر يضيق آفاق العقل"، ووجد دليله فى أشياء كثيرة مثل أولئك الذين يحملون حقائبهم فوق ظهورهم، ويجولون فى أفواج مع أبناء جنسيتهم وغيرهم من البريطانيين الذين يعيشون فى أحياء الأقليات المغتربة فى إسبانيا.

لقد طرح بعض المتخصصين السفر جانبًا فى ضجر، وقد كتب روبرت برتون Robert Burton موافقًا فى القرن السابع عشر قائلا "انظر إلى إحدى الصخور الشاطئية الناتئة من الجبل (كما قال سقراط)، جبل واحد، بحر واحد، نهر واحد وقد رأيتها جمعيًا"، ولكن لو كان أكثر الرجال حكمة فى أثينا يعتقد فعلا أن جبل إيچرست مثل جبل كلمنچارو، لما كانت فطنته وبصيرته وقواه العقلية المتميزة التى اشتهر بها مثلما كان يظن الناس.

ربما يكون أكثر النقد تعاليًا هو ذلك القائل بأن المسافر الأحمق هو الذى يشغل نفسه بالنظر بعيدًا، ويفوته النظر لما هو أمامه مباشرة.



ولكنه نوع من العجرفة الشوفينية أن نعتقد أن كل ما يستحق التقدير والثناء يأتى من حيث أتينا. ربما كانت أساسيات الحياة واحدة فى كل مكان: لديك أصدقاء وعائلة فى العالم أجمع، ولكن إذا كنت جائعًا لكل ما تقدمه الحياة، فلن تشبع لو اكتفيت فى نظامك الغذائى بالمنتج المحلى فقط.

حتى لو كنت ستفوز بالجائزة الكبرى فى بلدك، فذلك لا يعنى أنه لا طائل من السفر، وكما كتب إليوت T. S. Eliot "لن نتوقف عن الاستكشاف، وسيكون الهدف من وراء استكشافنا هو الوصول إلى حيث بدأنا والتعرف على المكان للمرة الأولى". بدون الاستكشاف سيبقى المكان الذى بدأنا منه مجهولا. ينبغى ألا يحولنا السفر عن تقدير أهمية بلادنا، لكنه يجعلنا نقدرها بصورة أعمق.

قارن

- السفر يوسع المدارك. (أوائل القرن العشرين)
- يتسع العش للطائر الصغير. (مثل أيرلندى)
- من يندفعوا إلى البحر يغيروا الجو المحيط بهم، ولا يغيرون مزاجهم.
(هورس (Horace (65-8BCE)



٧٥- يُعرف المرء برفاقه

(منتصف القرن السادس عشر)

قال لى صديق ذات يوم "تستطيع أن تعرف الكثير عن الشخص من الحذاء الذى يرتديه"، فاستغرقت فى الضحك باستخفاف، ولكن بإعادة النظر أدركت أننى ربما كنت قاسيًا بعض الشىء. قد يكشف ما قيل عن شىء مثير ومهم فى شخصياتنا، وهناك معنى فى ذلك. لو أن چان - پول سارتر Jean - Paul Sartre كان محقًا حين قال "ما أنت إلا حياتك" لما كان إذًا جوهر صرف للذات وراء أفعالنا، فالذات هى ما نقوم به بما فى ذلك اختيار الأحذية.

ومع ذلك فالأحذية وحدها توفر معلومات غير كافية وربما ملتبسة. زوج من الأحذية القديمة البالية قد يوحى بفقر أو إهمال متعمد أو إجراء ضرورى مؤقت. وبالمثل فإن زوجًا من نوع چيمى شو Jimmy Choo قد يوحى بأسلوب حياة طموح أو ولع بالأحذية، أو ببساطة، بوجود قريب يقدم هدايا أنيقة. حذاؤك يخبر بأشياء عنك، ولكن ما يقوله ليس كاملا.

يمكن أن نقول الشىء نفسه عن دليل أفضل على شخصيتنا: الرفقة. هناك أشياء قليلة تعكس قيمنا أفضل من اختيارنا لمن نُمضى معهم أوقاتنا، ولكن لا توجد طريقة بسيطة لقراءة صفات الشخصية من نوعيات أصدقائك ومعارفك. قد يكون لبعض الأشخاص مكانة خاصة فى قلوبنا لأسباب خاصة جداً. على سبيل المثال، قد لا يكون لديك الوقت الذى تضيعه مع مدمنى الخمور من الكاثوليكيين المحافظين، ولكنك قد تجد شخصًا ينطبق عليه هذا الوصف ويكون ذلك هو نفس الشخص الذى تعجبه موهبة



تيرى سكوت Terry Scott الكوميدية مثلك تمامًا. قد تتسامح فى أشياء تضايقك من أجل متعة مسلسل قديم مثل تيرى وچون Terry & June أو الفأر الخطر Danger Mouse.

عادة ما يتم تجاهل مثل تلك التعقيدات، ويقفز الناس لاستنتاجات عن الآخرين على أساس ما يرتدون من ملابس ومن يرافقون من أصدقاء، فلو كانت تلك الدلائل تعنى أى شىء على الإطلاق، فمن المستبعد استخدامها كطرق مختصرة لإصدار أحكام على الشخصية، ولو كانت تعنى الكثير مثلما يفترض فيها فلن نكون نحن تلك المخلوقات الغريبة المعقدة.

قارن

- من يحبنى يحب كلبى. (أوائل القرن السادس عشر)
- أخبرنى من يعاشر، أخبرك من هو. (مثل إسبانى)
- من ينم مع الكلاب يستيقظ مع البراغيث. (مثل فرنسى)



٧٦- الندم على ما فعلنا يمكن أن تخف حدته مع الوقت، أما الندم على الأشياء التى لم نقم بها فلا عزاء له

(سيدنى هاريس (Sidney J. Harris (1917-86)

إن لم تكن متأكدا كيف تدلى بصوتك فى الانتخابات أو أن تطلب فطيرة التفاح المقلوبة أو غيرها، فمن تخبرك بأنك "ستندم على ما لا تقوم به" لن يكون مفيداً لك على الإطلاق. ومع ذلك، فإن المثل نفسه غالباً ما ينطبق على أشخاص يفكرون فى الانتقال عبر البحار، أو الهرب مع الحبيب، أو بدء مشروع جديد كسبب للإقدام على ذلك. فما هذه النصيحة الغريبة التى لدينا هنا؟

الإجابة هى أنها ليست بنصيحة على الإطلاق، فالاعتقاد بأننا سنندم على ما لم نفعل لا يساعدنا على تقرير ما يجب علينا أن نقوم به، وذلك لأن أى شىء نقوم به يترك المجال مفتوحًا أمام بعض الفرص التى لم تُنجز. إذا فكرت فى الخيانة على سبيل المثال فسينتهى بك الحال إما متخليًا عن الإخلاص، أو عدم الإقدام على الفعل، وقد يندم البريطانيون على قبول استخدام اليورو وقد يندمون على عدم قبوله، فى كلتا الحالتين هناك دائمًا شىء لم تفعله وتندم عليه.

الخطأ الذى يقع فيه الناس هو الخلط بين ما هو فى الواقع التبصر بملمح مأساوى للحياة الإنسانية وعلم النفس وبين النصيحة؛ فالحكمة فى كلمات هاريس هى أننا فى كل ما نقوم به سوف نتساءل بشأن ما يمكن أن يحدث لو كنا سلكنا طريقًا آخر، وبينما يتحتم علينا أن نعيش مع عيوب اختياراتنا، نميل إلى التفكير فى مزايا الاختيارات التى رفضناها.



تكمن المفارقة فى أن مقولة هاريس يستحضرها أولئك الذين يخشون أن تفوتهم تجارب الحياة، ولكن بينما صحيح أن الجبن والخوف من المجهول يمكن أن يمنعانا من القيام بأشياء تستحق القيام بها، فصلب الحقيقة التى تعكسها هذه الكلمات هى أننا لا يمكننا أن نسلك كل الطرق المفتوحة أمامنا، وما لا نقوم به يصبح فراغًا شبحيًا يتبع ظل حياتنا الواحدة التى ننقشها لأنفسنا.

قــارن

- التفكير أولا شىء مفيد، والندم لاحقًا لا طائل من ورائه. (مثل إندونيسى)
- الشباب غلطة، والنضج نضال، وكبر السن ندم. (بنيامين ديزرالى Benjamin Disraeli (1804-81))
- الندم إهدار مروع للطاقة، لا يمكن أن تعول عليه، إنه يفيد فقط فى البكاء على الأطلال. (كاترين مانسفيلد Kathrine Mansfield (1888-1923))



٧٧- عندما يوصد باب يفتح آخر

(أواخر القرن السادس عشر)

نسمع اليوم كثيراً عن التفكير الإيجابى، والبعض يذهب بعيداً ليقول بأنه القوة السرية التى تجلب بعض النجاح الذى يتهرب منه آخرون. إذا رغبت فى شىء بدرجة كافية وسعيت فى طلبه من الملكوت سيكون لك ما تريد.

تلك كذبة رهيبة، فكم من أناس أرادوا واستجدوا القوة العليا أيًا كانت لكى لا يموت أحباؤهم، ولكنهم لم يجدوا من مجيب غير الصمت. هل هى رغبة وتصميم أعظم لجعل أطفال بعينهم يظهرون فى هذا العالم وفى أفواههم ملاعق من فضة بينما يموت غيرهم من سوء التغذية؟ هل نشير بإصبع اللوم إلى الذين فشلوا ونقول لهم "لَم ترغبوا بما فيه الكفاية"؟

لقد أدت أساليب التفكير تلك بالناس إلى أن يأخذوا كلام هاملت بحرفيته عندما قال "لا يوجد شىء جيد أو سيئ، ولكن التفكير هو ما يجعله كذلك". لو أن كل مخرج مدخل فى الوقت نفسه، وكل مشكلة فرصة لبدا كل ما هو سيئ فى هذه الحياة جيداً فى الوقت نفسه.

هذه النظرة المغرقة فى التفاؤل لا يوافق عليها أى شخص عاقل بعد تفكير ملىّ، حتى لو كانت كل عقبة فرصة، فذلك لا يعنى أنها ليست عقبة حقيقية على الرغم من ذلك. الفكرة هى أن السيئ ليس جيداً فى الحقيقة، ولكن يمكن أن يخرج شىء جيد من آخر سيئ.



لو أن كل تلك الأشياء الجيدة قيمة بدرجة كافية، لكان بالإمكان أن نكون سعداء بسبب معاناتنا التى أوصلتنا إلى تلك الأشياء، ولكن ليس صحيحًا بالنسبة لكل الفرص التى تتفتح أمامنا، لأن الأمور لا تسير فى سياقها الصحيح دائمًا. على سبيل المثال، لن يكون لدينا الفرصة لاحتضان الأمل لو لم نواجه إمكانية اليأس، ولكن غالبًا ما يكون من الأفضل ألا نواجه اليأس من البداية.

فبدلا من تقديم طمأنينة بليغة، نجد أن فكرة أن كل عقبة فرصة يجب أن تؤدى بنا إلى إمعان النظر فى المشكلة فى حد ذاتها، وألا نتمنى أن تكون أمرًا أفضل. الطريق المؤكد للخروج من الحفرة يجب أن يأتى من داخلها، وليس عن طريق التخيل بأنها ليست حفرة على الإطلاق.

قارن

- موت شخص قد يكون رزقًا لشخص آخر. (مثل هولندى).
- كل عقبة فرصة. (مثل إيطالى)
- يمكن لأى شخص أن يستفيد من أخشاب شجرة ساقطة. (مثل إسبانى)



٧٨- لا كرامة لنبى فى وطنه

(يوحنا ٤ :٤٣)

التسليم بالتوقير والحب الذى يكنه الشماسون من مريدى الراحل چاك ديريدا Jacques Derrida له، لا يتعارض مع كون هذا القول ينطبق عليه مثلما ينطبق على المسيح. على الرغم من شهرته كتجسيد لغموض وغرور الفكر الفرنسى فى أسوأ حالاته، فقد كان ديريدا أكثر شهرة خارج بلاده منه داخلها. المفارقة أنه مع وجود الهوة الثقافية الواسعة بين أمريكا وفرنسا، فإن شهرة ديريدا كمفكر عالمى قيادى بنيت فى أمريكا أكثر منها فى أى مكان آخر.

ومع ذلك قد يكون من المستغرب أن نقتبس هذا القول كدليل على أن ديريدا كان جيداً مثلما يدعى مؤيدوه. الحقيقة المجردة بأن الأجانب يحبونك لا تقوم دليلا على عظمتك. لو أن لديك شكوك حيال ذلك فتذكر أن ديڤيد هاسلهوف David Hasselhoff(*) حصل فى عام ١٩٨٩ على لقب أكثر الفنانين شهرة ومبيعاً فى ذلك العام فى ألمانيا.

منطق ملتو مماثل يمنح الراحة أيضاً لأولئك الذين يفشلون فى تحقيق النجاح الذى يتوقون إليه فى أى مجال. لم يدرك الناس حق عبقرية ڤان جوخ فى حياته، نخبر أنفسنا بذلك ونُمنيها بأن أولادنا سيحكمون علينا برحمة وعطف أكثر من أقراننا. ولكن فى مقابل كل عبقرية تُكتشف متأخرة، هناك الآلاف ممن يمكن أن يكونوا عباقرة ويحكم عليهم التاريخ بقسوة مثل أقرانهم.

(*) ممثل ومنتج ومغن ورجل أعمال أمريكى (المترجمة).



لعله هراء منطقى أن نقوم بهذا الاستنتاج: بما أنه لا كرامة لنبى فى وطنه وأنا لا كرامة لى فى وطنى، إذًا أنا نبى؛ ولكن هذه المغالطة الفكرية مغرية خاصة عندما يُتدبر فيها بطريقة ضمنية أكثر من التصريح المعلن بها، إلا أنك يمكنك أن تجادل كذلك بأن القطط لا زعانف لها، وأنا لا زعانف لى، إذًا أنا قطة.

قد يكون صحيحًا أنه لا كرامة لنبى فى وطنه، ولكن جابى الضرائب كذلك. وكما أن الشهرة ليست ضمانًا للجودة، فإن عدم الشهرة ليس سمة للتميز. الغموض يكون عادة الشىء الوحيد الذى نشترك فيه مع المواهب المغمورة.

قارن

- ما من شخص بطل أمام خادمه. مدام كورنويل Mme Cornuel (١٦٠٥-١٦٩٤)
- كل إنسان لديه أمنية كامنة بأن يكون له مكانة مهمة فى موطنه. صمويل چونسون Samuel Johnson (١٧٠٩-١٧٨٤).
- أود أن أظهر ذات يوم من خلال أعمالى ما يحمله قلب ذلك الشخص الغريب النكرة. ڤان جوخ Vincent Van Gogh(*) (١٨٥٣-١٨٩٠)

(*) فى هذه العبارة يتحدث ڤان جوخ عن نفسه ويقول إنه حتى لو رآه الناس شخصًا نكرة وغريب الأطوار فهو يود أن يظهر فى أعماله كيف كان نكرة وغريب الأطوار. (المترجمة)



٧٩- يشترك اثنان فى مشكلة فيقتسمانها

(منتصف القرن العشرين)

لو لديك مشكلة فهناك دليل مقنع مفاده أن التحدث عنها يخفف من وطأتها. البحث فى مجال العلاج النفسى، "المداواة الكلامية" على سبيل المثال، يوضح أن الأشخاص من ذوى المشكلات يشعرون بتحسن عندما توفر لهم بيئة داعمة، بها من يستمع إليهم ولمشاكلهم وهذا أفضل من أن تناقش تلك المشاكل مع معالج متخصص فقط، على الرغم من أن العلاج الحقيقى له نتائج أفضل من ذلك الدواء الوهمى[٨].

السبب وراء ذلك ليس واضحًا. الحس السليم يخبرنا عن "إلقاء ثقل المشكلة من على كاهلك"، وربما يكون تحديد المشكلة معينًا لنا فى التعامل معها. استخدم العالم النفسى ماثيو ليبرمان **Mathew D. Lieberman** تقنيات الصور الدماغية للتعرف على ما يحدث عندما نصنف مشاعرنا. المنطقة الحيوية هنا هى الفص اللوزى **(Amygdala)** فى المخ الذى يعمل كجهاز تنبيه، فعندما ترى وجهًا غاضبًا على سبيل المثال، حتى وإن حدث ذلك بسرعة لا تمكنك من تسجيله على مستوى الوعى، فإن هذا الفص اللوزى يزيد من نشاطه، ولكن عندما تصنف وجهًا على أنه "غاضب" فهذا يقلل من درجة نشاط هذا الفص. يبدو أن هذا الأمر له علاقة بالقشرة الجانبية الأمامية اليمنى التى تساعدنا فى التحكم بمشاعرنا.

(8) Essential Research Findings in Counselling and Psychotherapy, Mick Cooper (London: Sage, 2008), pp. 19-20.



قـد يكـون العـلم فنيًا وصعبًا، ولكـن فى التطبيــق تكون الرســالة واضحــة. يقول ليبرمان: كما تضـغط بقدمك على كابح السرعة وأنت تقود السيارة عندما ترى ضـوءًا أصفـر، عندمـا تعـبـر عن مـشـاعـرك بالكلمـات يبدو أنك تضـغط على مكبح استجاباتك العاطفية".

ومع ذلك لا يوجد إلى الآن بحث يظهر أن الاستماع إلى مشاكل الآخرين يجعل المستمع يشعر بالتحسن. اقتسام المشكلة قد يصغر من حجم شريحة من يشترك فيها إلى النصف، ولكنه لا يصغر من حجم الفطيرة ككل. الأسوأ من ذلك أن فوائد المشاركة لا تتضاعف فى كل مرة. إن تعبير ليبرمان المجازى الذى يستخدم فيه المكابح يخبرنا بأن معظم الفائدة تأتى عندما تطبق هذه النصيحة للمرة الأولى. بعبارة أخرى، اشتراك الكثيرين فى المشكلة بشكل متكرر ومتواصل قد يؤدى فى الواقع إلى انتشار المأساة ومضاعفتها وليس التقليل من وطأتها.

قــارن

- الأيادى الكثيرة تجعل العمل خفيفًا. (منتصف القرن الرابع عشر)
- المشاركة فى الحزن تخففه للنصف. (مثل هولندى)
- المشاركة فى المكروه نصف فرح. (مثل إيطالى)



٨٠- الموت لا شيء بالنسبة لنا، فبينما نحن موجودون الموت غير موجود، وعندما يأتى الموت لا وجود لنا

(أبيقور (Epicurus (341-270 BCE)

ما دام هناك فلاسفة، هناك حيرة حول سبب قلقنا بخصوص الموت. ومع ذلك نحن لا نستيقظ من نومنا فى الساعات الأولى من الصباح يملؤنا الفزع حول فكرة كيف كان الوضع قبل وجودنا . إذًا، لم نشغل أنفسنا بما سيحدث بعده؟ لو أن العدم شىء لا يمكن العيش معه فى هناء مرة فمن السهولة بمكان ألا نعيش معه مرة أخرى. فى الموت لا يمكن لشىء جيد أو سيئ أن يحدث لنا؛ لذا لا يوجد لدينا ما يدعو للقلق.

ومع ذلك، فالقليل منا يواجه احتمالية الفناء برباطة جأش تامة. حقًا، الشخص الذى لا يأبه بالمرة بالموت أو الحياة، غالبًا ما يُعتبر مختلا عقليًا، ليس فى سلام مع الحقائق الأبدية للفناء.

هل نحن حمقى إذًا لا نرى الحقائق الواضحة التى أشار إليها أبيقور وآخرون. كلا!. ليس فقط لأنك تعتقد أنه ربما يكون هناك رب منتقم، تصبح بعض التخوفات عن الموت عقلانية بصورة كاملة. كذلك ليس لأنه من الصعوبة بمكان أن تكون بعض التخوفات عن الموت عقلانية بصورة كاملة، وكذلك ليس لأنه من الصعوبة تحليل مدى خوفنا من الموت أكثر من الموت نفسه.

أن نكون على قيد الحياة يعنى أن يكون لدينا خطط ورغبات وارتباطات ومشاريع وأصدقاء، ولأننا نهتم بتلك الأشياء تسبب لنا احتمالية عدم وجودها الضيق بطبيعة الحال.



لا يحتاج ذلك أن يبنى على أساس أية فكرة خاطئة وهى أننا بمجرد موتنا سنفتقد تلك الأشياء، ولكن على أساس الرغبة الحاضرة فى أن تظل باقية. الرغبة فى عدم الموت هى الحالة المنطقية الملازمة للرغبة فى الحياة والاستمتاع بكل ما تقدمه لنا. هى حقيقة أن الموت لا شيء، وأن الحياة في بعض الأحيان شيء رائع، هى الحقيقة التى تجعل الموت أمراً مهماً لمن هم على قيد الحياة ويستمتعون بكل ما فيها.

قارن

- سيأتى الموت ويجدنى حيًا. (مثل إيطالى)
- لا يهم كيف يموت الإنسان، ولكن كيف يعيش. (صمويل چونسون Samuel Johnson (1709-84))
- لست خائفًا من الموت، ولكننى فقط لا أريد أن أكون هناك عندما يأتى. (وودى آلان-١٩٣٥).



٨١- يرى المتشائم نصف الكأس الفارغ،
ويرى المتفائل نصفه الملآن

(القرن العشرون)

هل ترى الكأس نصفه فارغًا أم نصفه ملآن؟ فكما يقول بيل كوزبى Bill Cosby "هذا يتوقف إذا ما كنت أنت الذى يشرب أم الذى يصب". وكما يقول چورچ كارلين George Carlin" لا هذا ولا ذاك. أرى كأسًا أكبر مرتين مما يجب أن يكون". وكما يقول الكثيرون من راغبى المزاح على شبكة الإنترنت "ومن يبالى؟ اشربها فقط".

تبرز الدعابة نقطة رئيسية فى هذا القول، وهى أن هناك دائمًا أكثر من طريقة للنظر إلى موقف بعينه، كما أن المنظور ليس ببساطة أمرًا يتعلق بالنظر إلى الحقائق بطريقة مختلفة، بل يتعلق بالموقف الذى يختاره ويتبناه الشخص: التفاؤل أو التشاؤم، أو السخرية أو اللا مبالاة.

من السهولة بمكان استنتاج الكثير من هذه النسبية المحمودة، فحقيقة أن هناك اختيارًا من بين أوصاف عدة لا تعنى أنه لا توجد حقائق موضوعية. يمكنك أن ترى كوبًا كبيرًا (بانيت) Pint نصفه فارغ أو نصفه ملآن، ولكن هناك إجابة صحيحة واحدة لسؤال عن كمية السائل بداخله: ٢٨٤مل. يتوقف الكثير على المنظور، ولكن الكثير لا يعتمد عليه كذلك.

فى بعض الأحيان لا يكون الأمر متعلقًا بالمنظور، ولكن بالسياق. طُرفة كوزبى توضح هذا جيدًا. عندما تكون فى منتصف عملية الصب فهو نصف ملآن،



وعندما تكون فى منتصف عملية الشرب فهو نصف فارغ. هذا لا يتعلق باختيارك كيف تنظر إليه، ولكن يتعلق بواقع الأشياء.

السبب فى كون السؤال عن الكأس نصف الفارغ - نصف الملآن اختباراً جيداً للتشاؤم والتفاؤل، هو أنه يعمل من خلال استبعاد السياق، ويسعى إلى سبر أغوار النفس. أتلاحظ ما تملك أم ما لا تملك؟ ولكن فى واقع الأمر دائمًا ما يكون هناك سياق؛ لذا فهو ليس ببساطة دائمًا أمرًا يتعلق باختيار كيف تنظر إلى الأشياء، فالأوصاف المختلفة قد لا تكون خطأ أو صوابًا، ولكن يمكن أن تكون أفضل أو أسوأ.

ليس كل موقف يتطلب حكمًا يمكن مقارنته بالكأس نصف الفارغة. بالأحرى، نحن نحتاج السَكينة لقبول أشياء كما هى، والخيال لرؤية أشياء يمكن أن ينظر إليها بصورة مختلفة، والحكمة لنعرف الفرق بين الاثنين.

قارن

- نصف رغيف أفضل من لا شىء. (منتصف القرن السادس عشر)
- كل سحابة لها حافة فضية. (منتصف القرن التاسع عشر)
- أن تكون أعور أفضل من أن تكون أعمى. (مثل ألمانى)



٨٢- لا تحتفظ فى بيتك بشىء لا فائدة له أو يفتقر للجمال

(وليم موريس (William Morris (1834-96)

أكتب الآن وأنا جالس فى غرفة صغيرة تعمها الفوضى، وكنت أنوى أن أرتبها منذ شهور. كيف لنصيحة وليم موريس، المصمم والكاتب والاشتراكى، أن تساعدنى فى تحديد ما ينبغى على عمله حيالها؟

أولا، أظن أننى يجب أن أتخلص من كل شىء لا فائدة له، لكن المشكلة هى أن ٩٠٪ من الأشياء المبعثرة هنا وهناك، أشياء نعلم أننا قد نحتاجها يوم ما مثل لفافتين من مساحات شاشة الكمبيوتر ولمبة، ومنظم للكهرباء فى أثناء السفر وجهاز فاكس نادر الاستخدام، وكل ذلك فى مجمله يجعل غرفتى تبدو غير مرتبة.

ثانيًا، هناك بعض الأشياء غير المفيدة مثل لوحة رسمها لاجئ لطائرات مروحية عسكرية فوق مقديشيو، وصورة مطبوعة لچوزيف رايت Joseph Wright لحمامة من دربى تختنق فى مضخة هواء، ربما يمكننى الاحتفاظ بها إذا قلنا إن موريس كان يتعين عليه أن يقول "شيئًا ذا مسحة فنية جمالية"، وليس "شيئًا جميلا".

تبقى أشياء قليلة تكسر قاعدة موريس. لدىّ صندوق أو اثنان صغيران أطلق عليهما "أشياء متنوعة لا يمكن الاستغناء عنها"، وبعض ألبومات صور، كما أننى لست مغرمًا باقتناء كميات كبيرة من الهدايا التذكارية، ولكن هناك بعض الأشياء من الماضى أحب الاحتفاظ بها ومعظمها ليس مفيدًا ولا جميلا.



إذًا تصبح نصيحة موريس فى النهاية تركيبة من شىء ناقص مع شىء واضح. من ذا الذى يرغب فى الاحتفاظ بشىء لا فائدة له أو لا يروق له؟ كذلك لِمَ يجب علينا أن نتخلص من أشياء لا ينطبق هذان الوصفان عليها، ولكنها ذات قيمة اقتصادية أو عاطفية؟

غالبًا ما أسمع كلمات موريس وهى تُقتبس من منطلق الرضا، على لسان أشخاص يدعون أنهم يتبعون حكمته، ولكن النصيحة تلقى اهتمامًا بمقدار ما إذا كانت هى ما نقوم به بالفعل ونتجاهلها إذا كانت ضيقة ومحدودة جدًا. إذا أردت حقًّا أن تغير من منزلك، فأى برنامج تليفزيونى قديم عن تغيير ديكور المنزل قد يعطيك إرشاداً أكثر تحديداً من وصية موريس الغامضة الفارغة.

قارن

- قيمة الشىء هى ما يعود عليك منه.(منتصف القرن السادس عشر)
- الشىء الجميل متعة للأبد. (چون كيتس (John Keats (1795-1821)
- تذكر أن أجمل الأشياء فى العالم هى التى لا فائدة لها: طيور الطاوس وزهور السوسن، على سبيل المثال. (چون رسكين (John Ruskin (1819-1900)



٨٣- السلامة أفضل من الندم

(منتصف القرن التاسع عشر)

شركة شبكة السكك الحديدية association network rail، وجمعية رجال الإطفاء Chief fire officers، وشركة التعدين المتعددة الجنسيات ريو تنتو Rio Tinto، وشركة الوقود النووى البريطانية British nuclear fuels، وشركة خطوط الطيران البريطانية مع عدد آخر لا حصر له من المؤسسات العامة والخاصة يدعون جميعًا بفخر بأن "السلامة هى أولويتهم الأولى". لا يوجد ما هو مستغرب فى ذلك. هل تتخيل لشركة مثل قطارات ڤيرچن Virgin Trains أن تعلن أن السلامة هى أولويتها الثانية بعد الراحة وتوفير الفرص لصور جميلة لريتشارد برانسون Richard Branson؟

ولكن على الرغم من الصعوبة السياسية والتجارية فى القول بأن الوقت والمال اللذين يمكن أن ينفقا على شيء لجعله أكثر أمانًا يجب أن ينفقا فى اتجاه آخر، فى بعض الأحوال يكون هذا هو ما يجب أن يقال. من الواضح أننا قد نرفض أن نستخدم مواردنا للتقليل من خطر محدد، وذلك لأن إنفاق نفس القدر على بدائل أخرى سيزيد من الأمان بشكل عام. على سبيل المثال، بعد كارثة قطار مرج لادبروك Ladbroke Grove فى لندن كان قُدر أن المليارات التى أُنفقت على خطة سلامة السكك الحديدية يمكن أن تنقذ أرواحًا أكثر خمسمائة مرة مما لو كانت قد أُنفقت على الطرق.

وبشكل أساسى أكثر لو لم نكن ننفق كل أموالنا على حماية أنفسنا، سنؤثر أن نستخدم أموالنا على أشياء أخرى غير السلامة فى وقت ما. كل جنيه ينفق على الفنون، على سبيل المثال، كان يمكن أن يذهب على الصحة العامة أو السلامة، وما ينطبق على



المال ينطبق كذلك على الوقت والطاقة. يمكن أن تقضى وقتًا أطول لتتأكد من سلامة سيارتك، وتختبر أجهزتك الكهربائية، وتراقب درجة نقاء ماء الصنبور لديك.

لو أصبح الاهتمام بالسلامة مسيطراً بدرجة كبيرة، فلسان حالك فى تلك الحالة لا يقول إن السلامة أفضل من الندم، ولكنك تصبح فى هذه الحالة سالمًا ونادمًا. هناك أكثر من طريق للندم، وعلى الرغم من أن الحزن الناتج عن الفشل فى أخذ كل الاحتياطات يصعب قبوله أو التعامل معه، فإن الخسارة والرغبة الناتجة عن الفشل فى الإقدام على أى مخاطرة يمكن أن تكون مؤلمة وغادرة كذلك. فى الواقع يمكن للحذر أن يسبب الحزن، وليس لأن السلامة أفضل من الندم دائمًا، تكون هى الاختيار الأفضل على الدوام.

قارن

- من يقاتل ويهرب قد يعيش ليقاتل يومًا آخر. (منتصف القرن السادس عشر)
- الحيطة أم السلامة. (مثل فرنسى)
- دع المياه التى لا تحتاجها للشرب تتدفق. (مثل إسبانى)



٨٤- أفضل الناس يفتقرون إلى الإيمان الراسخ، بينما أسوأهم يجيشون بالحماس المتقد

(ييتس (1865-1939) W. B. Yeats)

قدمت الكراهية الطائفية الأيرلندية الإلهام لييتس فى أبياته الشعرية الشهيرة فى قصيدته "القدوم الثانى"، ولكن الانتحاريين والمدافعين عن الأيديولوچيات اليمينية واليسارية والمتعصبين الدينيين والوطنيين المتشددين، تنطبق عليهم جميعًا تلك المقولة. من السهولة بمكان التفكير بأن الأشخاص الذين ارتكبوا فظائع مروعة قد قاموا بها بسبب الالتزام المتحمس لقضيتهم، وفى المقابل لا نجد مذابح ارتكبت من قبل جماعات من لا مبالين وغير مكترثين، فلا يمكنك أن تحرك الحشود بقولٍ مثل "ماذا نريد؟" عندما تكون الإجابة "فى الحقيقة نحن لا نعرف، ولا يهمنا ذلك".

على الرغم من ذلك، قد يكون من الخطأ أن نفهم ملاحظة ييتس الفطنة باعتبارها موافقة على اللا مبالاة. أن نقوم بالوصف شىء، أما أن ننصح أو نوصى فذلك شىء آخر. كون "الحماس المتقد" يحافظ على الأسوأ يمكن يكون رثاءً، كما يمكن أن يكون تحذيراً، لأن النار عندما تشتعل فى أعماق من هم أسوأ سوف ينتصرون بطبيعة الحال؛ ولذا كان قول "بيرك" "كل ما هو ضرورى للشر لكى ينجح هو أن يقعد الطيبون عن فعل أى شىء". لو افتقر أفضل الناس للإيمان الراسخ، فإنهم بذلك يتركون الطريق ممهداً لمن هم أسوأ ليقوموا بعملهم.

الرسالة إذًا مزدوجة؛ إذا كان أفضل الناس جادين فى الرغبة فى أن ينتصر الحق والخير، فهم يحتاجون إلى إضعاف قناعات وإيمان الأشرار أو أن يكتسبوا بعض الحماس.



كما أن الرسالة تأتى فى وقتها تمامًا حيث تناضل الديمقراطية الليبرالية الغربية أمام تحديات تطرف من الأقليات الوطنية والمسيحية والإسلامية. لا يكفى أن نثق فى رُقينا فحسب، بل نحتاج أن نفوز فى الجدل الدائر مع التطرف، ولو فشلنا فى ذلك سوف نتأهب للدفاع عن قيمنا بقدر من الحماسة المتقدة التى نراها فى أعدائنا، وإلا سنواجه الاحتمال الذى يطرحه ييتس قائلا:

ستتفكك الأشياء؛

لن يتماسك القلب،

سيجد العالم نفسه فى فوضى عارمة،

سيغمرنا تيار من الدماء المعتمة،

وستغرق احتفالية البراءة.

قارن

- لو بدأ الإنسان باليقين، سينتهى به الأمر إلى الشك؛ لكنه لو رضى بأن يبدأ بالشك ينتهى به الأمر إلى اليقين. فرانسيس بيكون Francis Beacon (١٥٦١-١٦٢٦).

- صدقنى هناك إيمان فى الشك الصادق أكثر من نصف العقائد. لورد تينيسون Alfred, Lord Tennyson (١٨٠٩-١٨٩٢).

- الحماسة الشديدة هى مقياس افتقار من يتمسك بها للإيمان العقلانى. برتراند راسل Bertrand Russel (١٨٧٢-١٩٧٠).



٨٥- دع الكلاب النائمة راقدة

(أواخر القرن الرابع عشر)

إحدى الطرق الشائعة التى تعيش من خلالها الأقوال المقتبسة إلى اليوم هى الرسائل الملهمة على الملصقات الإعلانية واللوحات المغناطيسية الصغيرة التى تلصق على الثلاجة أو الرسائل الإلكترونية اليومية. يعتبر ذلك انحرافًا عن المقصد، حيث إن القسم الأكبر من الأقوال المعروفة ليس تشجيعًا على تصرفات معينة بل هى تحذيرات ضد القيام بأعمال معنية.

تجتمع مجموعة من تلك الأقوال حول فكرة الطرق المتنوعة التى يُفضل فيها تجنب المواقف الصعبة على مواجهتها والتعامل معها. "لا تهز القارب"، و"من كان بيته من زجاج لا يقذف الناس بالحجارة"، و"اترك الكلاب النائمة راقدة".

فى كل حالة من تلك الحالات الثلاث، اللغة المجازية لافتة للنظر كما أنها مناسبة، ففى الغالب ما نكون فى مواقف هشة أو غير مستقرة حيث يكون التسرع هو الخطر الأكبر. حقًا، إحدى أفضل المجادلات ضد أى نوع من "الحرب الاختيارية" هو أن مخاطر الفوضى المدفوعة بالتحريض تكون فى أغلب الأحوال أكبر بكثير من الاستبداد الراسخ.

لكن السؤال على أية حال عن كيفية التصرف مع كلب صيد مشاكس يستحق إجابة أفضل من أن يترك وشأنه. كل شىء يتوقف على ما يمكن أن يحدث عندما يستيقظ الحيوان. إذا كنت ستغيب لفترة طويلة فأفضل خيار هو أن تسير بجانبه على



أطراف أصابعك، ولكن إذا كنت تريد أن تفعل شيئًا مع كلبك، فربما يكون من الأفضل أن تفعل ذلك وهو هادئ أو حتى وهو غير واعٍ، لا أن تنتظر حتى يركض وراء الأرانب.

من المفهوم أن معظم الناس لا يحبون التعامل مع المواقف الصعبة، وسيبحثون عن أى عذر لتأجيل المواجهة؛ هذا يعنى أن المواقف الكبيرة يتعامل معها الناس عندما يصلون إلى "القاع" أو إلى "نقطة أزمة"، فمن الأفضل بكثير أن يتعامل الناس مع مشاكلهم عندما تكون الأمور أقل اضطرابًا.

بعيدًا عن حرصنا على ألا نثير الحيوانات النائمة، فإن مشكلتنا فى العادة هى أننا نميل إلى التظاهر بأن الهدوء المؤقت يعد مؤشرًا على أننا لا نحتاج إلى أن نفعل شيئًا، وإذا مزجنا الصور البلاغية يمكن أن نقول: إذا كنت تريد أن تمسك الثور من قرونه، فمن الأفضل أن نفعل ذلك وهو نائم يحلم وليس وهو يهجم عليك.

قارن

- لا تُقدم على المشاكل، اتركها حتى تجىء. (منتصف القرن التاسع عشر)
- لا توقظ القطة النائمة. (مثل فرنسى)
- لا توقظ الدب النائم. (مثل سويدى)



٨٦- طريق الحب الحقيقى ليس ممهدًا على الدوام

(وليم شكسبير William Shakespeare (1564-1616))

يمكن أن نصنف معظم الأغانى المعروفة إلى نوعين: نوع يدور حول متع الحب، ونوع يدور حول آلام الحب. لكل من يتغنى بأغنية "أريد أن أمسك يدك" هناك أغنية "بالأمس".

يمكننا أن نتحدث بفصاحة عن الين واليانج، ولكن إدراكنا البسيط أن مع "إشراقة الشمس ينزل بعض المطر أحيانًا" كما غنت لين أندرسون Lynn Anderson "لا يفيدنا كثيراً. خذ على سبيل المثال، محادثة موسيقية بين أندرسون ونيل ديموند Neil Diamond"، والتى غنى فيها الأخير "أنت لا تأتين إلى بالورد، لا تغنين لى أغانى الحب، تتحدثين إلىّ بالكاد عندما تدخلين من الباب"، فهل يبدو جيداً أن تجيب أندرسون على النحو التالى "أستميحك عذراً فأنا لم أعدك بحديقة زهور".

المشكلة هى أن طريق الحب الزائف ليس سلسًا كذلك، وعندما نعرف أن طريق الحب الحقيقى طريق حجرى، يمكن لتلك الفكرة أن تزود أولئك الذين يتجهون الوجهة الخطأ بطمأنينة زائفة، وبسهولة، كما لو كانت قادرة على تقوية قلوب المحبين فى المياه الهائجة.

هى صعوبة الحياة فى الأساس وليس الحب على وجه الخصوص؛ لذا كانت عهود الزواج التى يقطعها أى اثنين مقدمين على الزواج، وقد قررا أن يعيشا كشخص واحد، واتفقا على أن يقوما بذلك فى السراء والضراء.



نواقص الحياة الدفينة تعنى أنه حتى من يكون من الأزواج مناسبين جداً لبعضهما نجدهم معرضين لمواجهة عقبات. ليساندر Lysander الذى يحذر من طريق الحب فى الفصل الأول من مسرحية "حلم منتصف ليلة صيف" لشكسبير يسرد عدداً من تلك المشاكل: إما اختلاف المكانة الاجتماعية أو فرق السن أو الاعتماد على اختيار الأصدقاء، ولو كان هناك توافق وانسجام فى الاختيار لوجد الحب نفسه محاصراً بالحرب أو الموت أو المرض مما يجعله لحظياً كصوت، وسريعاً كظل، وقصيراً كأى حلم؛ إنه السبيل إلى الحب الذى يمكن وصفه بالوعر وليس الحب الحقيقى فى حد ذاته. عندما تسوء العلاقات يجب أن نسأل: هل المشكلة فى الطريق أم فى المسافرين أنفسهم؟.

قارن

- شجار المحبين يجدد المحبة. (أوائل القرن السادس عشر)
- زوج أصم وزوجة عمياء زوجان سعيدان دائماً. (منتصف القرن السادس عشر)
- من يحبنا بصدق سيجعلنا نبكى. (مثل إسبانى)



٨٧- الحقيقة فى النبيذ

(بلينى الكبير Pliny the Elder (AD 23-79)

إذا كنت تحاول أن تخفى الغيظ أو الغضب أو الكراهية فلا ينصح بمعاقرة الخمور. الكثير من حالات الطلاق وقعت بعد اعتراف شخص ثمل بفقد الحب أو اكتشافه فى مكان آخر. فى مثل تلك الحالات من الطبيعى أن نعتقد أن الكحوليات عقار الحقيقة.

الكلمات القاسية، على الرغم من ذلك، ليست هى الخطر الأكبر لشرب الخمر. فى بريطانيا ٦٠٪ – ٧٠٪ من حوادث القتل، وحوالى نصف كل الجرائم العنيفة، وما يزيد عن ثلث حالات الاعتداء داخل المنازل يعتقد أنها ارتكبت تحت تأثير الخمور. لو أن الكحوليات تكشف الحقيقة هكذا ببساطة، لبدا أن الاتزان والاعتدال أكثر قليلا من كبح دائم للدوافع العنيفة.

هذه النتيجة القاسية يمكن تجنبها إذا ميزنا بين أثرين للكحوليات. أولا: هى تعتبر باعثًا على البوح، وهذا يعنى أن ما يصعب علينا قوله أو فعله عادة، ويصبح سهلا بعد كأس أو ثلاث.

ولكن للخمر مجموعة أخرى من الآثار، فتحت تأثيرها يصبح عمل القشرة الدماغية ضعيفًا، بينما يصبح الجهاز الطرفى Limbic System هو المتحكم؛ مما يعنى أن العواطف تأتى أولا قبل التفكير الموزون، وتأتى فى المقدمة ردود أفعال ودوافع فطرية مثل الشجار أو الهرب والرغبة الجنسية.



وهذا يعنى أننا عندما نشرب حتى الثمالة فإن القيود لا تنفك من على رغباتنا ومشاعرنا الطبيعية فحسب، بل تصبح لدينا فى الحقيقة أفكار ورغبات لا تكون لدينا فى الأحوال العادية أو ربما توجد ولكن بدرجات ضئيلة، فعلى سبيل المثال، ما قد يكون عادة انتباهًا بسيطًا لجاذبية شخص ما قد يصبح رغبة أكثر قوة للقاء جنسى.

لهذا السبب لا يعتبر هذا القول صحيحًا، فما نقوله ونفعله تحت تأثير الخمر لا يعكس دائمًا ما نريد أن نقول أو نفعل ونحن واعون غير ثملين، إلا أنها مأساة الكثير من حوادث القتل أو الانتحار تحت تأثير الخمور: الفعل العنيف فعل لم يكن المجرم يريده بالمرة. حقيقة أن هناك فى الغالب رغبة سابقة دفينة تنتظر الخمر لتتضخم، لا تعنى أن القيام بفعل عنيف تحت تأثير الخمر هو أكثر مظاهر تجلياتها الحقيقية، ففكرة أننا نصبح أنفسنا بحق عندما نكون تحت تأثير الخمر، ليست نظرة حكيمة، ولكنها وهم شائع لمعاقرة الخمر.

قارن

- عندما يحضر النبيذ، تغيب الفطنة. (أواخر القرن الرابع عشر)
- الثمل والأطفال يقولون الحقيقة. (مثل ألمانى)
- ما تتمناه وأنت واعٍ تفعله وأنت ثمل. (مثل يونانى)



٨٨- الشىء الوحيد الذى يجب أن نخافه هو الخوف نفسه

فرانكلين دى . روزفلت Franklin D. Roosevelt (1882-1945)

عندما أخرج للعشاء لا يوجد شىء أرتديه إلا الملابس كما غنى لويس چوردان Louis Jordan فى "الحياة غريبة" مضيفًا رؤى كوميدية أخرى مثل "عندما أشعر بالعطش، لا يوجد ما أفعله سوى أن أشرب"، وكان بإمكانه أن يضيف "عندما يكون هناك شىء مخيف، فلا شعور يعترينى إلا الخوف".

يمكن لمقولة روزفلت أن تبدو كذلك مجرد تكرار بلا أى إضافة، ولكى نقول إنها ليست كذلك، يجب أن نعود إلى المناسبة التى قيلت فيها أول مرة، وهى الخطاب الرئاسى الافتتاحى فى مارس ١٩٣٣، حيث كانت أمريكا غارقة فى أزمة اقتصادية كبيرة وهى ما كان يعرف بـ"الكساد العظيم"، وهذا، ولا شىء غيره، هو ما كان روزفلت وجمهوره يفكرون فيه عندما أطلق دعوته لتحدى الخوف. ما قاله هو "دعونى أؤكد اعتقادى الراسخ بأن الشىء الوحيد الذى يجب أن نخافه هو الخوف نفسه، رعب لا يمكن وصفه أو تسميته مفرط فى عاطفته الجامحة ولا يمكن تبريره وهو يشل كل الجهود المطلوبة لتحويل التقهقر إلى تقدم".

ما كان يعتقده روزفلت هو أن خوف الشعب الأمريكى فى الأزمة لا يستطيع أحد أن يتحكم فيه؛ فقد ولد من رحم أزمة حقيقية وخطر حقيقى، ولكن بعد الصدمة الأولى وفى غمرة ركود اقتصادى طويل، اختفى الباعث على الخوف وتوارى فى الماضى بينما بقيت مشاعر ذلك الخوف؛ لذا لم يكن روزفلت يقدم ادعاءً عامًا عن طبيعة الخوف، بل كان يُشخص مرضًا معينًا وهو "الرعب الجامح غير المتعقل وغير المبرر" فى وقته.



ليس معنى ذلك أن كلماته تلك متجذرة فى زمنه ولا يمكن أن نفيد منها الآن؛ فكل ما نحتاج أن نتذكره هو أنها ليست حقيقة على إطلاقها، إذ أحيانًا يكون هناك ما يخيف، ولكن غالبًا، مثل الطفل الذى لا يستطيع أن يعاود النوم بعد كابوس، يبقى شعور الخوف حتى بعد اختفاء السبب؛ وفى مثل تلك المواقف وفى تلك المواقف فقط، نجد كلمات روزفلت تقوى من تصميمنا.

قارن

- يموت الجبناء مرات عديدة قبل موتهم. (أواخر القرن السادس عشر)
- الخوف يجعل الإنسان يحلق بعيداً. (مثل ألمانى)
- الأفضل أن تُقتل من أن تظل مرعوبًا من الموت. (آر. إس. سرتيس (R. S. Surtees (1803- 64)



٨٩- عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به

(إنجيل متى ٧:١٢)

من قاعدة كونفوشيوس الذهبية، إلى إلزام كانط القاطع، إلى قوانين الهندوسية وكل النظم الأخلاقية الرئيسية فى التاريخ، التى أكدت أهمية أن تعامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به، المبدأ عادى ومألوف لدرجة أنه يبدو صحيحًا بشكل جلى، إلا أننا لو نظرنا إليه بحرفيته فسنجد أنه خطأ بشكل جلى كذلك.

المشكلة هى أن الحس الأخلاقى الناضج يتطلب وعيًا باختلافات الآخرين وأوجه تشابههم، فعلى سبيل المثال، المديح الذى قد يرضى شخصًا قد يتسبب فى إحراج شخص آخر، وبينما قد نفضل أن نعرف الحقيقة دائمًا، فقد يفضلها آخرون إذا لم تكن معبرة عن آراء سلبية أو نقدية بشأنهم.

تقديم الهدايا مثال آخر يوضح كيف أن الفشل فى رؤية العالم من خلال وجهة نظر الآخر يمكن أن يؤدى إلى الإساءة والضيق؛ فإعطاء الآخرين ما نود منهم أن يقدموه لنا، وصفة للضيق والاستياء، وما قد يسبب لنا البهجة كهدية، تنم عن ترف وكرم، قد يصدم الآخرين باعتباره إضاعة تافهة للمال والوقت، وتقديم هدية على ذوقك وليس على ذوق من تقدمها له قد يوحى بنقد متعالٍ لما يقدرونه من أشياء.

صحيح أننا نستاء من تلك الهدايا لأنها تظهر فشلا فى اتباع الروح الحقيقية للقاعدة الذهبية، فالجيد هنا ليس هو أن تعامل الكل بالطريقة نفسها، ولكن أن تعامل الناس بالاحترام نفسه الذى تتوقعه منهم؛ إنه احترام لقدر حياة كل منا وحرية العيش



كما نراها مناسبة وفى حدود معقولة؛ أى أننا لا يمكننا إظهار هذا الاحترام إن لم نكن ندرك خصوصية حياة الآخرين، وكيف تختلف اختياراتنا عن اختياراتهم؛ لذا نستطيع فى حقيقة الأمر، بل يجب علينا، أن نختلف وفقًا لما نتعامل معه.

قــارن

- ما يسبب لنا جرحًا ينبغى ألا نصنعه بغيرنا. (الماهابهارتا The Mahabharata)
- لا تفـرض على الآخـرين مـا لا تحب أن تختـاره لنفسك. (كـونفـوشـيـوس Confucuis (551-479BCE))
- تصـرف حسب الحكمة التى يمكن أن تصبح قانونًا عامًا. (كانط Immanuel Kant (1724-1904)).



٩٠- عندما تكون فى روما افعل مثل أهلها

(أواخر القرن الخامس عشر)

"روسيا متورطة"، كان ذلك تعليق وودى آلان المقتضب عن الحرب والسلام، وهو يعتبر مثالا متطرفًا على كيف أن الكثير من التفاصيل المهمة تضيع بالتلخيص. هذا هو الحال مع المثل "عندما تكون فى روما..." وهو شرح أو تفسير لنصيحة كاملة من القديس أمبروز، والتى سطرها فى القرن الرابع.

كان القديس الطيب قد لاحظ أن الكنائس فى ميلانو وروما تصوم فى أيام مختلفة، وقدم نصيحة قائلاً: "اتبع عادة الكنيسة التى اعتدت الذهاب إليها إذا كنت تريد تجنب الفضيحة".

من الواضح أن هذه سياسة أكثر حذراً من تلك التى تنصح بتقليد كل شىء يقوم به الرومان، وهو أمر مفهوم لأنه لا يمكن لمسيحى ورع ذى ضمير مخلص أن يحاكى نوعًا من الفسوق يوجد فى بعض مناطق أى عاصمة كبيرة.

حتى بدون الحافز الكنسى لرفض كل عادة محلية تقابلنا، هناك أسباب تجعلنا نلتزم بنصيحة أمبروز بروحها الأصلية. بالتأكيد، ليس من الأخلاق أو الحكمة أن نقلد بدون نقد كل ممارسة يمارسها أهل أى بلد نزوره؛ فالشركات المتعددة الجنسيات، على سبيل المثال، غالبًا ما تعمل فى دول تنتشر بها الرشى كوباء، ومع ذلك لا نتوقع من موظفيها أن يتبنوا تلك العادات المحلية المتبعة هناك تحت اسم التجريب الثقافى أو احترام الاختلاف، كما تعتبر المقولة نصيحة جوفاء عندما تستخدم لتبرير الأخطاء



الواضحة، على أساس أن ذلك هو ما يقوم به الجميع؛ إذ لم تكن نية القديس أمبروز أن نذهب بنصيحته إلى ذلك الحد، وفى هذا الإطار يجب أن نظل مخلصين لنوايا القديس.

إنه ينصح بالحذر لأسباب تتعلق بمذهب اللذة كما تتعلق بالأخلاق، فعندما نكون بالفعل فى روما، فالكثير من المسافرين سينغمسون فى كل ما لذ وطاب من الأطعمة هناك مثل الأمعاء الداخلية للحيوان، أو أنواع المكرونة الشهيرة مثل الريجاتونى مع أمعاء العجل الصغير، ولكن عندما يكونون فى الولايات المتحدة فلن يقلد هؤلاء الآكلون الولع المحلى بصالات الطعام فى المتاجر الكبيرة وسلاسل مطاعم الوجبات السريعة.

قارن

- مع الذئاب لابد من أن نعوى. (مثل ألمانى)
- أينما تذهب، افعل ما تراه. (مثل إسبانى)
- الأسماك الميتة فقط هى التى تسبح مع التيار. (مالكوم مجريدج Malcom Muggeridge (1903-90))



٩١- الصبية هم الصبية

(أوائل القرن السابع عشر)

من زمن ليس ببعيد، كانت عبارة "ألعاب الصبية" تستحضر إلى الذهن أشياء مثل مجموعة المكعبات ليجو ومجموعات القطارات والمسدسات البلاستيكية. الآن، مثلما تشهد مواقع على شبكة الإنترنت، مثل bigboystoyz.com, boystoys.co.uk، أصبحت تلك العبارة تعنى أدوات أو ألعابًا للكبار مثل جهاز صغير للتحكم عن بعد للطائرات الحربية المروحية ومنصات إطلاق الصواريخ USB أو هراشة الرجال "عندما تكون يداك ليست بالدقة الكافية".

عبارة "الصبية هم الصبية" اتسعت بالقدر نفسه من حيث السن، حيث إنها لم تعد تعبر عن الحيوية والنشاط الزائد للأطفال، ولكنها أصبحت تعبر عن تبريرات لفلتات الكبار؛ فهى تمثل موت روح القديس پول الذى كتب "عندما أصبح رجلا، أتخلى عن الأشياء الطفولية". لو أن الصبية هم الصبية والرجال لا يزالون صبية لكان علينا أن نعفى الرجال من مسئوليتهم فى تحسين سلوكهم كى يعكس حالة النضج الظاهرة لديهم.

لكن تلك الصبيانية بين الأجيال ليست هى السبب الأساسى وراء إشكالية تلك المقولة، واستخدامها الواسع يعكس رد فعل عنيفًا ضد الحركات النسائية التى تؤكد أن الاختلافات بين الجنسين هى فى الأساس مفاهيم اجتماعية، ولكن هذا الرأى قوبل بالرفض على نطاق واسع، وذلك من ناحية بسبب مقاومة القوى الاجتماعية النسائية التى حذرت منه، وأيضًا بسبب وزن الدليل من علم النفس وعلوم الجهاز العصبى بأن



هناك بالفعل العديد من الاختلافات بين النماذج الذكورية والأنثوية فى التفكير والمشاعر، والادعاءات بأن الرجال من المريخ والنساء لا يستطعن قراءة الخرائط قد انتقلت من معارف عفى عليها الزمن إلى حقائق بدهية دعمها العلم فى جيل واحد.

لكى نختتم حديثنا، لا يوجد هناك إذًا فائدة من الشكوى عن أدوار الجنسين وانتزاع الكثير من العلم بصورة غير مبررة، فوجود اختلافات بيولوجية محددة بين عقول الذكور والإناث لا يعنى أن كل الاختلافات الحقيقية الملاحظة فى الرجال والنساء فى مجتمعات معينة طبيعية وغير قابلة للتغيير بالفعل، يجب أن يكون واضحًا أن أدوار الجنسين طبيعية جدًا، مثلما توضح حالة الرجال الذين يقومون بتربية الأطفال فى إسكندنافيا، وعدم وجود سائقى سيارات من النساء فى المملكة العربية السعودية.

كما هو الحال فى أغلب الأحوال لا يوجد خيار واضح بين الطبيعة والتنشئة: كلاهما له دور يقوم به، فالصبية هم الصبية، ولكن الرجال لا يزالون يتمتعون بحرية أكبر، ويتصرفون بصورة مختلفة أكثر مما يحرص الكثيرون على الاعتراف به.

قارن

- صغار القطط اللعوبة تصبح قططًا كبيرة متزنة. (أوائل القرن الثامن عشر)
- صغار السمك ستكبر. (مثل فرنسى)
- الطفل والد الرجل. (وليم وردزورث (William Wordsworth (1770-1850)



٩٢- العبقرية: ١٪ إلهام، و٩٩٪ جهد

(توماس إديسون (1931-1847) Thomas Edison)

يعانى التشبيه الإحصائى من نفس ضعف الإحصاءات الحقيقية: قد لا تكذب ولكنها بالتأكيد يمكن أن تضلل، فعلى سبيل المثال، عندما يكون الكيف وليس الكم هو الموضوع يمكن لـ ١٪ فقط أن يحدث الفرق.

خذ مثلا الحمض النووى المعروف بـ DNA، فمعظم العلماء متفقون على أن البشر يشتركون فى حوالى ٩٨.٥٪ من الشفرة الجينية مع الشمبانزى، ورغم ذلك، يعد مضللا الاستنتاج بأن البشر ٩٨.٥٪ شمبانزى، ومع ذلك نحن نشترك بحوالى ٥٠٪ من DNA الخاص بنا مع الموز، ولكن هذا لا يجعلنا أنصاف بشر أنصاف موز، فما يجعل كل نوع من الكائنات البيولوچية فريداً هو الفروق الچينية وليس عدد نقاط التشابه العديدة.

ما يعتبر حقيقيًا حرفيًا بالنسبة لـ DNA يعد حقيقيًا مجازًا بالنسبة للعبقرية. تشبيه إديسون يؤخذ عادة ليعنى أننا يمكننا جميعًا أن نصبح نابغين إذا عملنا بجد، ولكن مثل نسبة ١٪ الفرق بيننا وبين أقراننا من الحيوانات الأولية، والتى تؤكد أن الشمبانزى لا يمكن أن يكون إنسانًا، كذلك هى نفس نسبة ١٪ من موهبتنا الاستثنائية التى تكفى لتمييز العبقرية عن غيرها حتى ممن يعملون بكد، ولكن موهبتهم أقل؛ فالعمل الجاد الصرف يمكن أن يقرب بينك وبين العبقرية، ولكنه لا يجعلك تفوز بها.



على الرغم من ذلك، فإن هذه الواقعة الصارخة عن حدود قدراتنا لا تتماشى مع زماننا الذى يتميز بالديمقراطية والمساواة، والذى يُمكِّن شخصًا مثل أرنولد شوارزنيجر Arnold Schwarzenegger من أن يفوز فى انتخابات بسبب فصاحته وشعبيته، حين قال "يمكن أن تحصل على أى شىء ما دام أنك تعمل بجد".

كلمات إديسون مفيدة جدًا، ليس للغالبية التى تناضل من أجل العظمة، ولكن للعباقرة الواعين بما يحتاجونه لاستغلال مواهبهم، ولا يزال عليهم أن يبذلوا ٩٩٪ من الجهد حتى يحققوا مرادهم، وستظل تراوغنا نسبة ١٪ من الإلهام التى تنقص الباقى منا.

قارن

- العبقرية هى قدرة لا محدودة على تحمل الآلام. (أواخر القرن التاسع عشر)
- العبقرية بدون تعليم مثل الفضة فى المنجم. (مثل أمريكى)
- قطرة مستديمة ستنحت الحجر. (مثل ألمانى)



٩٣- تُذرف الدموع على الدعوات المستجابة أكثر منها على تلك غير المستجابة

ترومان كابوت Truman Capote (١٩٢٤-١٩٨٤)

"لقد تحقق الحلم" عبارة تعتبر أكثر وصف متحمس لتجربة أو لأمور واقعية حياتية، وتتفوق عليها عبارة "أفضل من أكثر أحلامي جموحًا"، ومع ذلك هناك أيضًا فكرة متكررة مفادها أن الحصول على مرادك يجب أن يكون آخر شيء تريده أو تسعى إليه، وكما عبر چورچ برنارد شو قائلا: "هناك مأساتان في الحياة: الأولى هي ألا تصل إلى مبتغاك، والثانية هي أن تصل إليه فعلا". إذًا أين الحقيقة؟ ألا يوجد شيء مثل الأحلام، كوابيس لا نهاية لها فحسب؟

صحيح بالتأكيد أن حقيقة ما نطمح إليه غالبًا ما تحبطنا، فهناك اتجاه سيئ الطالع بالتفكير بأن إنجازًا مستقبليًا ما، هو ما يوجد فيه خلاصنا، فقط لو كان لدينا هذا أو فعلنا ذاك سيكتمل كل شيء، ولو فكرنا بهذه الطريقة من الأفضل بالفعل أن نسافر ويحدونا الأمل في أن نصل، لأننا على الرغم من أننا عند نقطة معينة سوف نصل إلى مقصدنا، لكن سيظل هناك شيء ما ناقصًا. ولن نصل إلى الاكتمال أبدًا. كان كابوت محقًا في شيء واحد، فالإحباط الناتج عن اكتشاف أن قيمك ومُثُلك هي في الحقيقة جوفاء، يمكن أن يصبح مدمرًا أكثر من خيبة الأمل الناتجة من عدم إدراك مبتغاك على الإطلاق.

صحيح كذلك أننا لا نفكر في الغالب من خلال تبعات طموحاتنا. يشترى الناس منازل ريفية هادئة فقط لكي يدركوا أنهم يكرهون العزلة، ويبعدون ٢٠ ميلا عن أقرب



مـصـدر للمـاء والطعـام، وقـد يـصل غـيـرهـم لمـا يطمـحـون إليـه فى وظائفـهـم، ولكنهم يستخفون بالثمن الذى دفعوه من حياتهم الشخصية وحالتهم العقلية. نعتقد أننا نعرف مـا نريد، فى حين أننا يجب أن نعرف أن رغباتنا يمكن الاعتماد عليها بقدر مبادئنا ومعتقداتنا التى ترتكز عليها فقط.

على الرغم من ذلك ليس أيًا من تلك الحقائق المثبطة سببًا جيدًا لكى لا نحلم. على العكس، هى تذكرات بأن أحلامنا يجب أن تكون واضحة مثلما يقول المثل "احذر ما تتمناه"، وليس **"لا تتمن على الإطلاق". مع الطموحات الخاطئة تصبح الحياة مثل** السباحة بقوة، ولكن فى الاتجاه الخطأ؛ ولكن بدون أى طموح على الإطلاق نحن نطأ المياه فحسب.

قـارن

- احذر ما تتمناه، فقد تحصل عليه. (أوائل القرن العشرين)
- أعطتنى جدتى دينارًا لأرقص واثنين لأتوقف. (مثل بوسنى)
- لـو حـصـل الناس على مـا يـرون، فلربمـا كـان فى ذلك دمـارهم. (أيسـوب **Aesop (620 560 BCE)**.



٩٤- أن تعرف كل شيء هو أن تغفر كل شيء

(منتصف القرن العشرين)

بعد التفجيرات الانتحارية في لندن في يوليو ٢٠٠٥، اجتهد الناس ليفهموا كيف يمكن لأربعة أشخاص يبدو عليهم الاحترام أن يتعمدوا قتل أنفسهم حتى يتمكنوا من ذبح أناس بدون تمييز وعلى نحو عشوائي. مع هذا، إذا لم نفهم ما الذي يقود الناس لتلك الأفعال البربرية فكيف يتسنى لنا أن يكون لدينا أي أمل في أن نمنع آخرين من السير على خطاهم؟

في الوقت نفسه يعزف الناس عن فهم الكثير من الأمور، وكما يقول الفرنسيون: "أن تفهم كل شيء يعني أن تغفر كل شيء"، ولكن العدالة تتطلب ألا نصفح أو نعفو، الأمر الذي نخشى أن يحدث إذا كنا على فهم تام بالأفعال الإجرامية.

خذ على سبيل المثال كيف أن بشير أحمد وهو عم الانتحاري شيزهاد تنوير Shezhad Tanweer تعرض للانتقاد، عندما قال إن ابن أخيه كان "يبحث عن العدالة". حتى على الرغم من أن أحمد كان يعتقد بوضوح أن التفجيرات عمل خاطئ، فإن الرأي بأن الدافع وراء عمل تنوير كان قائمًا على مبادئ من وجهة نظره كان أمرًا جللا بالنسبة للبعض. أخبار العالم على سبيل المثال أدانت أحمد لتقديم "تبرير منحرف للفظائع التي ارتكبت".

ولكن التفسير ليس مثل التبرير أو التماس الأعذار؛ فكل ما فعله بشير أحمد هو أنه وصف ما قصده ابن أخيه من الضيم والشكوى، ويمكن أن تقبل بمشروعية الظلم، ولكن دون أن تجد أعذارًا للفظائع التي ترتكب باسمه.



حقًا من الصعوبة بمكان التأكيد على تمييز أولى بين الخير والشر إذا كنت تتفهم تمامًا لماذا يقدم الناس على ارتكاب أشياء مروعة، ولكن العدالة الصارمة لا تتطلب نظام الأخلاق "أبيض أو أسود". يجب أن يقاوم الاعتداء أو الأذى سواء ارتكبه الشياطين أو البشر الخطاءون.

من العبث أن نرى أننا إذا تفهمنا تماماً عقليات الانتحاريين فلن نريد أن نوقفهم بل ربما ننضم إليهم، فما علينا أن نتخلى عنه هو نفس نوع العجرفة الخطيرة فى التأكيد الأخلاقى المطلق الذى يقود الآخرين إلى ذبح الأبرياء.

قارن

– هنالك على الرغم من ذلك حد يكف عنده الحِلم عن أن يكون فضيلة. (إدموند بيرك Edmund Burk (1729-97)

– الفهم التام يجعل المرء متسامحًا جداً. (مدام دى دوستال Madame De Stäel (1766-1817)).

– التسامح اسم آخر للامبالاة. (دبليو سومرست موم W. Somerset Maugham (1874-1965)).



٩٥- يحصد المرء ما زرعته يداه

(العهد الجديد) الغلاطية ٦ :٧

يعد البحث عن النظام فى عالم تعمه الفوضى مطلبًا إنسانيًا، ويكشف هذا البحث فى بعض الأحيان عن أن هناك نظامًا بالفعل مثلما هو الوضع مع العلم، وكما أن هناك نماذج أخرى نتبينها مثل تلك فى علم التنجيم وعلم الأعداد، قد تكون نتائج لتفكير سيئ أو تواق متفائل.

أحد الأشياء العديدة التى نود أن تُنظم عن طريق القوانين الطبيعية هى العدالة، بيد أن من غير المحتمل أن تحدث الأشياء السيئة لأناس طيبين، وربما الأسوأ من ذلك أن تحدث الأشياء الجيدة تحدث لأناس سيئين، يبدو كذلك أننا نجد هذا الظلم مهيمنًا جدًا؛ ولذا نفضل أن نعتقد تلك الأمور ظاهرية فقط وليست حقيقية.

يمكن أن نفعل ذلك عندما نعتقد بصورة أو أخرى فى المبدأ القدرى القائم على أساس المبدأ البوذى كارما Karma(*) "إنك تجنى ما تقدمه يداك"، تحدث الكوارث ولكن فى النهاية تعود الأمور إلى نصابها وسيرث الطيبون الأرض.

إنها نظرية مطمئنة ولكن يمكن أن تناسب الدليل إذا كنا نعتقد فى الحياة بعد الموت أو أى حيوات سابقة، وذلك لأن من الواضح أن البشر لا ينالون ثوابهم أو عقابهم العادل على هذه الأرض.

(*) مبدأ مهم من مبادئ البوذية قائم على أساس أن الجزاء من جنس العمل (المترجمة).



ربما الأكثر أهمية هو كيف أن تلك الطريقة فى التفكير تؤثر فى رد فعلنا تجاه البلاد، فعلى الرغم من أن نوعًا من العدالة قد يبذر بذور هذه الفكرة، ولكن عندما تحصد يكون لها تأثير سام. عندما خسر مايكل بورتيللو Michael Portillo(*) فى ١٩٩٧ وسقط برج التجارة العالمى فى نيويورك، ومات الناس من جراء مرض جنون البقر، كان التعاطف مع الضحايا ملوثًا بنوع من المتعة التى تسببها آلام الآخرين، وقد دفع إلى الشعور بتلك المتعة المريضة فكرة أن شخصًا أو دولة أو الزراعة الحديثة كانت تدفع ثمن أخطاء سابقة.

الأسوأ من ذلك أن مبدأ أنك تحصد ما تزرع يداك يشجع المعتقد الداعى الذى يرى أن فى حالة معاناة شخص ما لابد من أن تكون من جراء أعماله وأخطائه؛ فالإيمان بأن النظام الطبيعى للأشياء سيهتم بالعدالة، بالإضافة إلى أنه بعيداً عن أن يكون موقفًا أخلاقيًا، ربما كان وسيلة لإراحة ضمائرنا وإزاحة فكرة ضرورة التعاطف الإنسانى.

قارن

- لكل خنزير يوم راحة. (مثل إسبانى)
- توقع أن تُجزى من جنس عملك. (مثل إيطالى)
- ما تقدمه لغيرك يجب أن تأكل منه. (مثل ألمانى)

(*) مايكل بورتيللو: صحفى بريطانى، ومذيع، وعضو سابق فى حزب المحافظين (المترجمة).



٩٦- العشب دائمًا أكثر اخضرارًا على الجانب الآخر

(منتصف القرن العشرين)

بينما تسير بريطانيا فى طريقها لتصبح مجتمعًا مدنيًا استهلاكيًا تبدو صورة الحقول الخضراء التى تحوطها السياجات وسيلة غريبة للتعبير عن الحسد والطموح، حيث أصبحت حقولنا الخضراء تجهيزات معدة مسبقًا من الخشب الصناعى وحوائط بيضاء تنم عن أناقة إسكندناقية، كما أصبحت السياجات التى تفكر فى القفز من فوقها مرتفعة تمامًا مثل بطاقاتنا الاعتمادية.

لو طرحنا عدم ملاءمة المحيط الطبيعى جانبًا، فإن ذلك التعبير يصبح أكثر صحة، ولكن مثل حالة مرض الپارانويا أو جنون العظمة حيث لا يوجد ضمان بأنهم لا يتعقبوننا، كذلك فإن إدراك خطورة تصوير الحياة البديلة بصورة مثالية لا يعنى أن بعض الحقول المجاورة ليست بالفعل أكثر خصوبة.

بعض الناس ممن يعرفون ذلك جيدًا هم أشخاص، بنظرة إلى الوراء، نجد أنهم أخذوا وقتًا طويلا لترك أحبائهم؛ يبدو أنها تجربة شائعة لدى النساء على وجه الخصوص أن يستمروا فى علاقات سيئة حتى بعد انتهاء مدة صلاحية العلاقة بفترة طويلة. أحد الأسباب وراء ذلك هو قولهن لأنفسهن، وغالبًا ما يسمعون الكلام نفسه من آخرين، إن عليهن الرضا بما لديهن؛ لتوسيع حدود الصورة البلاغية بأكثر مما تحتمل ربما، فإن نطاق حقهم قد يكون ضيقًا ومحدودًا وربما موحلا، إذا ما قورن بحقول العزوبية، ولكن حقلهم يوجد به ثور مُرَوض فى حالة معقولة على الأقل.



إنهن يدركن، بعد استجماع قدر من الشجاعة والقوة فقط، أن رعيهن كان فى مراع غير مناسبة، فهؤلاء النساء لسن غبيات بل توضح حالتهن صعوبة تطبيق حكمة التعبير البلاغى؛ كلنا نعرف أننا نميل لوضع ما لا نملك فى صورة مثالية، وهذا يجب أن يجعلنا نفكر مرتين ما إذا كان لزامًا علينا القيام بتغييرات جذرية، ولكن عندما نعاود التفكير لمرة ثالثة، لا يكون واضحًا مقدار ما نحتاج أن نصلحه فى عدسات نظاراتنا الوردية الملونة.

قارن

- نحب الآخر لأنه أكثر من مناسب. (مثل إسبانى)
- تبدو كعكة الأرز فى يد الغير أكبر دائمًا. (مثل كورى)
- قطعان الماشية فى الحقول البعيدة لها قرون أطول. (مثل أيرلندى)



٩٧- وردة بأى اسم آخر، ستظل رائحتها عطرة

(وليم شكسبير (William Shakespeare (1564-1616)

ألا يكون رائعًا العيش فى عالم لا تهم فيه الأسماء والألقاب؟ ولكنها بالفعل مهمة بل وبطريقة أكثر تأثيرًا وعمقًا مما قد نتوقع.

على المستوى الأولى فهو وضع محزن أن يحكم الناس على أشياء على أساس أسمائها، فعلى سبيل المثال، قام ديفيد فيجليو David W. Figlio فى جامعة فلوريدا بالقيام ببحث مفاده "قد يقوم المدرسون باستخدام اسم الطفل كإشارة لإسهامات أبوية غير ملحوظة فى تعليم هذا الطفل، ويتوقعون قدرًا أقل من أطفال ذوى أسماء" تبدو "وكأنها سميت من قبل آباء غير متعلمين"[٩]. ويتفق دليل ساخر مع هذا. فكر، على سبيل المثال، كيف أن الشخصيات الكوميدية لديها أسماء تنحاز لمحاباة المشاهدين.

قد تعتقد أن ذلك سبب أدعى للانتباه لكلمات شكسبير فى الفصل الثانى من مسرحية روميو وجوليت، قد نعطى، ولسوء الحظ، تأكيدًا كبيرًا للأسماء، ولكن إذا لم نفعل ذلك نكتشف أن الوردة بأى اسم آخر ستظل رائحتها طيبة، ولكن من أسف أن الوضع ليس كذلك.

يصبح الكمال شيئًا معقدًا جدًا، ويتأثر على نحو عميق بالتوقعات، فعلى سبيل المثال، بالتجربة وجد أن من يعاقرون الخمر يستمتعون بالنبيذ أكثر لو عرفوا أنه غالى الثمن،

---

(9) Figlio, David N., 'Names, Expectations and the Black-White Test Score Gap' (March 2005). NBER Working Paper No. Wl1195. Available at SSRN: http://ssrn.com/abstract=684721



والنتيجة المهمة لهذا البحث هى أن أولئك الأشخاص لا يقولون أو يعتقدون أن النبيذ أفضل فقط، بل يتخيلون أن مذاقه أفضل بالفعل. الطريقة التى تستوعب فيها المذاق والرائحة تتأثر بما نعتقد ونفكر؛ ولذا على سبيل المثال، يمكن أن نغطى أعين الناس ونخبرهم بأن آيس كريم الشيكولاتة الذى يأكلونه هو آيس كريم فراولة أو أن النبيذ الأحمر أبيض، وسيؤمنون على كلامنا بعد تذوقهم للآيس كريم أو النبيذ.

لا يعنى أى من ذلك أنه لا توجد فروق حقيقية بين النبيذ الجيد والسيئ وبين رائحة الزهور ورائحة السماد، فما يعنيه هو أن الطريقة التى نتكلم ونفكر بها عن الأشياء ليست طارئة أو عرضية: لها القدرة على تغيير تجربتنا عنها.

قارن

- الكلمات القاسية لا تكسر عظاماً. (أواخر القرن السابع عشر)
- من الأفضل أن تفقد إحدى عينيك من أن يكون لديك اسم سيئ. (مثل يونانى)
- من يرد أن يغرق كلبه يقل إنه مصاب بداء الكلب. (مثل فرنسى)



٩٨- لا نستطيع أن نأمر الطبيعة إلا إذا أطعناها

(فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561-1626))

"يوضح التاريخ مرة تلو الأخرى كيف أن الطبيعة تؤكد حماقة الإنسان ورعونته"، تلك الجملة مأخوذ من أغنية لفريق بلو أويستر كلت Blue Oyster Cult كما تؤكدها حقيقة تأتى من أغنية تحتوى على كلمات أقل عمقًا "آه لا، هكذا تمضى طوكيو/ هيا يا جودزيلا(*). "فكرة وجوب عدم تحدى الطبيعة هى جزء من الحكمة الشعبية، ويقبلها كل شخص تقريبًا من فرق موسيقى الميتال فى أمريكا، إلى المحللين الليبراليين الاجتماعيين.

تأتى الصعوبة فى فهم معنى تحدى الطبيعة، والغريب أن من بين أولئك الذين يدعون أنهم يتفقون مع فرانسيس بيكون، ستجد المدافعين عن قضايا البيئة وأعداءهم اللدودين من العلماء يطورون كائنات معدلة وراثيًا.

السبب وراء ذلك هو أن العلماء المدافعين عن البيئة لديهم فكرة مختلفة جدًا عن معنى الوقوف ضد الطبيعة، وبالنسبة للعالِم بالطبع، تحتاج أن "تطيع" الطبيعة، ولأن لا شيء يمكن أن يكسر قوانين الطبيعة ويستقيم الأمر؛ لذا فإن الكائنات المعدلة وراثيًا لا تتحدى الطبيعة، ولو فعلت لبقيت خيالا علميًا.

لذا فالعلماء متفقون تمام الاتفاق مع بيكون، ويرون أن عملهم يتمثل فى أمر الطبيعة - بمعنى محاولة السيطرة عليها لتحقيق صالحنا - ويحققون هذا الهدف من خلال العمل فى إطار الحدود الممكنة التى تصفها قوانين الطبيعة.

(*) الجودزيلا Godzilla نوع من أنواع الديناصورات.



إن من يعتقدون أن العلماء يشتطون فى تلاعبهم بالطبيعة لا يمكن أن يستشهدوا بمقولة بيكون، فقد يعتقدون أننا لا نستطيع أو لا ينبغى لنا أن نسيطر على الطبيعة بالقدر الذى نقوم به بالفعل، أو أن طاعتها تعنى أننا يجب أن نتركها وستتركنا هى؛ ولكن تلك الإنذارات تذهب لأبعد من مجرد الطلب بالعمل مع الطبيعة وليس ضدها، فهى تنبع من تحذير ضد العجرفة والخوف من أننا قد نكون ماضين بعيداً وبسرعة فائقة، ربما كان هناك معنى فى ذلك، ولكن كأساس فكرى مُرض للتقييد، فهى بلو أويستر كلت أكثر من كونها فرانسيس بيكون.

قارن

- يمكنك أن تبعد الطبيعة بمذراة، ولكنها تعود مرة أخرى. (منتصف القرن السادس عشر)
- طارد الطبيعة بعيداً لتعود إليك عدوًا. (مثل فرنسى)
- كل الأشياء صناعية لأن الطبيعة هى فن الله. (توماس براون Thomas Browne ((1605 - 82)



٩٩- أينما توجد الحياة، يوجد الأمل

(منتصف القرن السادس عشر)

ما الذى يجعل الحياة جديرة بأن تعاش؟ البعض يعول على قدسية الحياة التى لها قيمة بنفسها وفى حد ذاتها، بينما يدعى آخرون أن الحياة جيدة بقدر ما تسمح لنا بعمله، وأنها ليست جيدة فى حد ذاتها، فعلى سبيل المثال، لدى البشر وعى ذاتى ثرى وفريد، إذا فقدناه كما هو الحال فى حالة الخمول والركود، فقد نفقد ما يجعل حياتنا تستحق الحماية والحفاظ عليها.

يمكن تلخيص هذا الاختلاف فى فكرة أن جانبًا يأخذ التمييز بين العيش بحق وليس مجرد الوجود، ليكون الأهمية الأسمى، بينما الجانب الآخر يعتقد بأن "مجرد الوجود" قيمة كبرى.

الفرق عميق ويجعل الآراء متعارضة، ويمكن رؤية ذلك فى كيف ينظر كل جانب إلى فكرة أنه أينما وجدت الحياة وجد الأمل، والسؤال الأهم هنا هو: الأمل فى ماذا؟ فى رأى المدافعين عن قدسية الحياة، الأمل هو الحياة فى الأساس، وثانويًا هو فى حياة أفضل، ما دام أنك تحيا فلديك الشىء الأهم وهو الحياة، وهدف الأمل الرئيس هو المزيد من الشىء ذاته.

بالنسبة لمعارضى هذا الرأى هناك أشكال من الحياة الإنسانية لا تستحق أن تعاش، ففى مثل تلك الحالات، نحتاج أن نعرف ما إذا كان هناك أمل فى التقدم فيما بعد مجرد الوجود، والثمن الذى سيفرضه علينا المستقبل، وفى بعض الأحيان لا يوجد



مثل هذا الأمل: حالة الخمول الدائم لا تقدم أى وعد بالعودة لوجود إنسانى حقيقى، وبدون أمل كافٍ قد نجد مبررًا لوقف جهودنا لدعم الحياة أو حتى لأخذ خطوات لإنهائها. فالأمل فى حياة من هذا النوع ليس كافيًا.

لذا بالنسبة لأى من الفريقين لا يمس هذا القول شغاف الحقيقة، إذ تحتاج أن تسأل الأمل فيم، ولو كان ببساطة فى حياة أكثر فهو صحيح، ولكن إذا كان لما هو أكثر من مجرد الوجود فإنه للأسف يكون غائبًا، وفى كلتا الحالتين، لا يسعنا إلا أن نعود إلى سؤال القيمة الرئيسية: ما الذى يستحق التمنى فى الحياة؟

قـــارن

- هناك أمل مادام أن خيط سنارتك فى المـاء. (مثل نرويجى)
- ويبقى الأمل حيًا. (مثل فرنسى)
- من أُعلن موتهم تطل حياتهم. (مثل ألمانى)



١٠٠- تأتى المعرفة وتبقى الحكمة

(ألفريد، لورد تينيسون (Alfred, Lord Tennyson (1809-92

الحكمة فكرة تريح الجاهل، فالكثيرون منا يجب أن يعيشوا مع حقيقة أن هناك الكثيرين غيرهم ممن يتمتعون بقدر أكبر من الذكاء والمعرفة، وهؤلاء الناس قرأوا واستوعبوا وحفظوا معلومات هائلة، والكثير منهم لديه قدرات استدلالية واستنتاجية أسرع مما لدينا، ولكن نسأل أنفسنا هل هم أكثر حكمة؟

الحكمة ليست الرشاقة الذهنية أو الاحتفاظ بالمعلومات، ولكنها نوع خاص من البصيرة تؤهلنا للنظر فى قلب الحقيقة وتقدير الخطورة وما ينبغى عمله، وفى هذا الإطار، كل شخص حكيم أمام نفسه مع استثناء الأمور الفنية، فنحن لا نسمح للآخرين بأن يقرروا نيابة عنا فيما نعتقد أو كيف نحيا حياتنا.

أن تكون حكيمًا يعنى أن يكون لديك موهبة أو مهارة معينة، تلك القائمة على أساس التجربة، وبالتالى فمن السهولة الاعتقاد بأنها شىء مثل ركوب الدراجة التى إذا اكتُسِبت فلن تفقد أبدًا؛ الحكمة تبقى كما يقول تينيسون.

ولكن ذلك يبعث على الرضا وإن بحماقة، فالحكمة سهلة الكسر ولا يحطمها بعنف إلا الاعتقاد بأنها اكتسبت للأبد. ذلك، أكثر من أى شىء آخر، كان السبب وراء وجود هذا الكتاب؛ فنحن نجمع آراء ملخصة فى شكل أقوال واستشهادات، ولكن مع مرور الوقت نتوقف عن التفكير فيها، وتتدهور إلى أن تصبح كليشيهات جوفاء نأخذها على عواهنها، نبسطها أكثر من اللازم، أو يغيب عنا الهدف الأساسى من ورائها؛ وبالتالى تُفقد البصيرة ويحل محلها سوء فهم أحمق.



أن تكون حكيـمًـا لا يعنى أن تصل إلى منزلة من النضــج لا ترتد عنهــا أبدًا، ولكن أن تظل تفهم جيدًا من خلال المثابرة على عادة السؤال الدائم ورفض قبول الأمور كما هى ليست تلك سكينة الحكيم الخيالى، وإنما هى يقظة العقل المضنية التى ترفض الراحة السيكولوچية للمسلمات بها.

أى شىء ذو قيمة فى هــذا الكتــاب لن يظـل فى أذهــاننا طواعية، بل سيبقى فى أذهان أولئك الذين يستـمــرون فى التساؤل كما فعــل وربما أفضـل، فالحكمة ليست نتيجة وإنما طريقة تفكير.



المؤلف فى سطور :

جوليان باجينى

- فيلسوف وكاتب صحفى شارك فى تأسيس:

PHILOSOPHERS MAGAZINE.

- له نحو عشرة أعمال من أهمها:

- الفلسفة ومعنى الحياة.

PHILOSOPHY AND THE MEANING OF LIFE.

- الخنزير الذى يريد أن يؤكل.

THE PIG THAT WANTS TO BE EATEN.

- وقد ترجم هذا الكتاب إلى ما يزيد عن عشرين لغة من بينها العربية، وصدر عن المركز القومى للترجمة بعنوان "تربيع الدائرة" (ترجمة د. عماد صبحى).




مكتبة
الفكر الجديد

المترجمة فى سطور:

هبة مرسى عبد العزيز الشايب

- ماجستير فى العلوم الإنسانية من الجامعة الأمريكية - القاهرة.

من ترجماتها:

- نموذج المستعمر للعالم: الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية (جى. إم. بلادت)، مراجعة د. فيصل يونس (المركز القومى للترجمة).
- نموذج المستعمر للعالم: ثمانية من مؤرخى المركزية الأوروبية (جى . إم. بلادت)، مراجعة د. فيصل يونس (المركز القومى للترجمة).




مكتبة
الفكر الجديد

التصحيح اللغوى: أيمن صابر

الإشراف الفنى: حسن كامل



الحكم والأمثال والأقوال المأثورة موجودة فى كل ثقافات العالم، وهى تلخص بكلمات قليلة تجارب إنسانية عدة منذ بدء الخليقة، ولما كان السياق هو الذى يحكم تلك الحكم والأمثال والأقوال، فإننا كثيراً ما نجد أنفسنا أمام عبارات متناقضة.

فى هذا الكتاب يقف المؤلف أمام مائة قول مأثور فى اللغة الإنجليزية كثيراً ما يرددها الناس دون تفكير، على الرغم من أن كلا منها لا يقبض سوى على جزء من الحقيقة، وربما لا يصبح فى محله فى سياق مختلف.

هدف الكاتب هو أن يظل العقل الإنسانى فى حالة تساؤل دائم؛ لأن الحكمة الحقيقية ليست منتجاً نهائيا ... الحكمة عملية مستمرة... والمفاهيم نسبية، والمعرفة لا تتوقف... وفى كل لحظة هناك جديد تحت الشمس على الرغم من القول الراسخ بالتقادم "ووضع اليد": "لا جديد تحت الشمس".



تصميم الغلاف: نسرين كشك